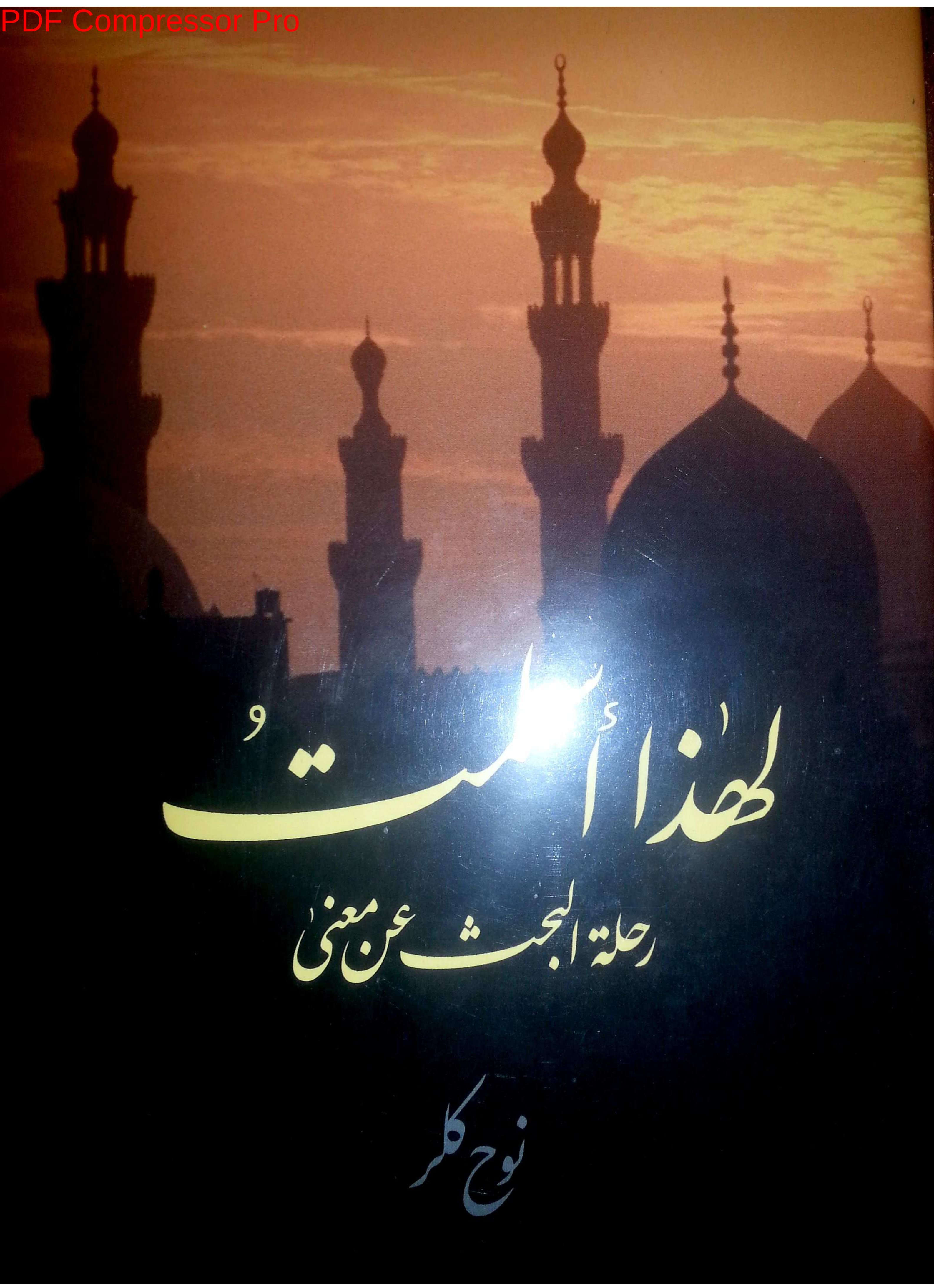
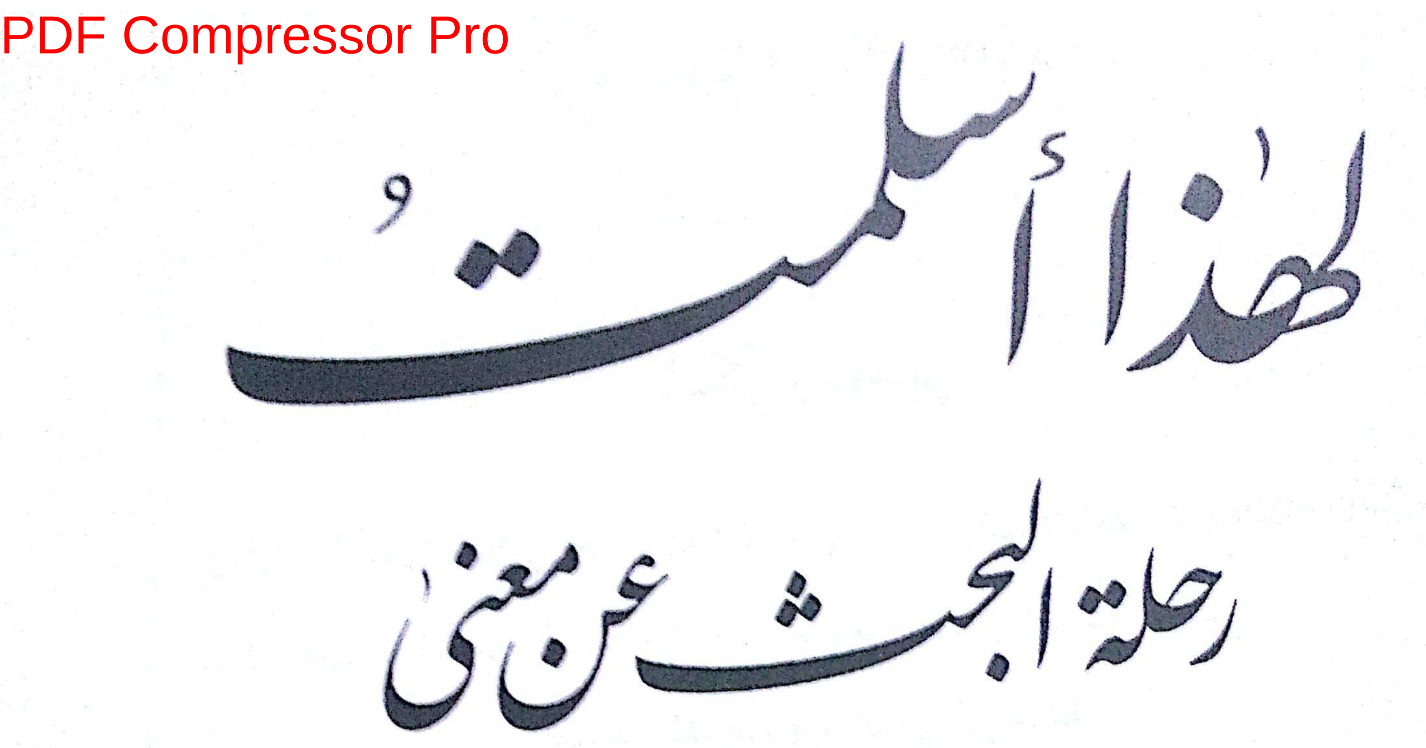
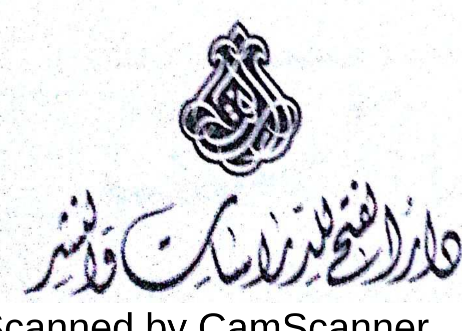

لهذا أسلمت
رحلة البحث عن معنى
نوح كلر



رحلة البحث عن معنى

نوح كلر



دار الفقيه

شكرٌ وتقدير

كنتُ كتبتُ قصةَ إسلامي هذه باللغة الإنجليزيـة بعنـوان Becoming Muslim، ثم قام عددٌ من الإخوة الفضلاء بترجمتها عدة ترجماتٍ إلى العربية، منهم:

صديقي المترجِم عبد الهادي أبو غزالة

الأستاذ الباحث مقران قـزُّو

الأخت الصحفية آمال عويضة

وقد استفدت من تلك الترجماتِ جميعِها في إخـراج ترجمـةٍ عربيـةٍ جامعـةٍ محـرَّرة، مع الإضافـة والتنـقيح. كما استفدتُ من الصـياغةِ الأدبـية التي قام بها الأديـبُ الأسـتاذ أحمد عبد الرحيم.

وأخيراً .. قرأ عليَّ تلميذي إياد الغوج النصَّ الكاملَ للترجمة وراجعها معي تـصحيحاً وتحريراً عدةَ مرّات.

ولجميع الإخوة المذكورين شكري وتقديري، وأسأله تعالى أن يجعلَ ثوابَ ذلك كلِّه في صحائفنا جميعاً، ويتقبّله وينفعَ به المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

المؤلِّف




PDF Compressor Pro


بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي القصة

الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

وبعد،

لماذا أسلمتَ..؟

سؤالٌ ما زال يُطرح عليَّ منذ شتاء ١٩٧٧، ويتكرّر حتىٰ الآن في مناسباتٍ كثيرة، لأحكيَ قصة إسلامي وكيف أشرق نورُ هٰذا الدِّين في قلبي، الأمرُ الذي حدا بعضَ الإخوة أن يطلبوا مني كتابةَ تلك القصة، وصادف هٰذا الطلب من نفسي موقعاً.

وعلى الرغم من أنّ لكل قصةٍ ـ عادةً ـ بدايةً ووسطاً ونهاية، إلا أنّ أمرَ الحياة ليس بهذه البساطة، فمسارُ الإنسان ـ ولا سيّما فيما يتعلق بأمور العقل والقلب ـ نادراً ما يتحدَّد بأسباب معينة تؤدي إلىٰ مسبَّبات واضحة. ثم إنَّ هذه الأسبابَ والمسبَّباتِ لا تكون عادةً من القلة بحيث تستوعبها قصةٌ أو تُلِمُّ بجُلِّ أطرافها،

ورغمَ ذلك فإنّ هذه القصة ـ بما فيها مِن شواهدِ عنايـة الله وهدايته ـ قد تثيـر الاهتمامَ وتقعُ موقعـاً فـي عالمٍ قد سُلبت منـه الروحانيةُ اليوم، عالمٍ لم يَعُدْ يعيشُ إلاّ قانونَ الغاب وتصارعَ القوىٰ. ولعلها ـ بتوفيقٍ من الله ـ تقعُ في يدِ مَن يصبو لأسمىٰ مِن مجرَّد ما يجدُه حوله.



داخل الكنيسة

ولدتُ عام ١٩٥٤ في ريف الشمال الغربي للولايات المتحدة الأمريكيـة، وترعرعتُ في أحضان عائلة كاثوليكيـة متديّنة. وقد منحتني الكنيسة في طفولتي عالماً رُوْحانياً خالصاً، لا مجالَ فيه لطرح أية تساؤلات أو طلب أية إجابات منطقية؛ إذ إنّه كان بالنسبة إليَّ أكثرَ واقعيةً ـ بمسلَّماته التي لا يرقىٰ إليها الشك ـ من العالم الماديِّ الذي يحيط بـي، ولكن، عندما تخطّيتُ مرحلة الطفولـة وشارفتُ الشباب ـ وخاصةً بعد التحاقي بجامعةٍ كاثوليكية، واتساع دائرة قراءاتي ـ أصبحَتْ علاقتي بهذا الدِّين محلَّ تساؤل، وتزايدت شكوكي سواءٌ في العقيدة أو الممارسة، كليهما.

وكان من أسباب هذه الشكوك تلك «التعديلات» التي توالت على الطقوس والشعائر الكَنَسية عقِبَ **المَجْمع الفاتيكاني الثاني**[١][(*)] الذي امتد بين عامي ١٩٦٢ و١٩٦٥.

(*) وُضعَتْ جميع التعليقات على القصة في نهاية الكتاب ص٤٩.

فلم يكن واحدٌ منهم يرضىٰ بالغياب! وأخيراً، شعرتُ بأنّ «الرب الأب» لا بدَّ أن يكونَ هوَ المسؤولَ عن الاثنين الآخَرَيْن. لهذا كلّه كانت ألوهيةُ المسيح العقبةَ الكؤودَ في عقيدتي الكاثوليكية.

وعلاوةً على ذلك، فإنّ مزيداً من التأمل في المسألة أظهر لي بوضوح ذلك التناقضَ الفادح بين كلٍّ من حقيقة الإنسان المحدود الفاني، وحقيقة الإلـه المطلق الأبدي. ولهذا ظلّت ألوهية المسيح أمراً غيرَ قابلٍ للاستيعاب، ولا أتذكر أبداً أني يوماً من الأيام آمنتُ في قرارة نفسي بأنّ المسيحَ إلـه، لا في طفولتي ولا بعدَها.



أما المسمارُ الأخير في نعش اعتقادي المسيحي؛ فقد كان تجارةَ الكنيسة في (أسهمٍ وسَنَداتِ) الآخرة، فيما عُرف بـ«صكوك الغفران»، التي يلزمُك شراؤها إذا أردتَ التخفُّفَ من حِمْل ذنوبك وآثامك! وبقدر ما تدفع لرجال الكنيسة يُخفَّف عنكَ من عقابك الذي ينتظرك ـ لا محالةَ ـ في «**المَطْهَر**»[٢]! الأمر الذي بدا كذباً مكشوفاً **لمارتن لوثر**[٣] Martin Luther في أوائل عهد الإصلاح البروتستانتي للكنيسة.

وأذكر أنه كانت تتملّكني رغبةٌ ملحّةٌ في العثور علىٰ نصٍّ إلـهيٍّ منزَّل يهدي للتي هي أحسن. وفي أحد أعياد (الكريسماس)

أُهديَتْ إليَّ نسخةٌ فاخرة من «الكتاب المقدَّس» بعَهْدَيْه، ولَمَّا حاولتُ قراءته وجدتُه حافلاً بالاستطرادات الكثيرة التي لا يكاد يَجمَعُها سياقٌ منطقيٌّ واحد، حتىٰ بات من العسير عليَّ جداً التفكيرُ في محاولة استنباط قواعدَ منضبطةٍ منه يُمكن للإنسان تأسيسُ حياته وفْقاً لها.

وبمرور الوقت، وبمزيدٍ من الخِبْرة.. عرفتُ كيف يتعامل المسيحيون مع هذه المعضلة علىٰ أرض الواقع. فطائفة البروتستانت تبتدع نظرياتٍ مذهبيةً خاصةً بها، فتؤكد أهمية ما يؤيد تلك النظريات من نصوص، وتقلِّل من شأن النصوص الأخرىٰ. والأمرُ نفسُه تفعله طائفة الكاثوليك؛ إذْ تقلِّل من أهمية جميع النصوص عدا تلك النُّتَفِ التي تُذكَر في طقوسهم.

ومن ذلك كلِّه اتضح لي بصورةٍ جليّة أنّ في هذا «الكتاب المقدَّس» شيئاً ما ـ نقصاً أو زيادةً أو تحريفاً ـ يمنع من إمكانية قراءته كوحدةٍ متكاملة.

وعندما التحقتُ بجامعة غانزاغا Gonzaga الكاثوليكية بولاية واشنطن (في خريف ١٩٧٢) اكتشفتُ أن مصداقيةَ هذا «الكتاب المقدَّس» ـ لا سيما «العهدُ الجديد» منه ـ تعرّضت لتشكيكٍ كبير من قِبَل كثير من الباحثين المسيحيين أنفسهم، نتيجةً للدراسات الحديثة في تأويل النصوص وإعادة قراءتها.

وفي أثناء دراستي مادةَ **اللاهوت**[٤] المعاصر قرأت ترجمة نورمان بيرين Norman Perrin الإنجليزية لكتاب «إشكالية يسوع التاريخي» *The Problem of the Historical Jesus* الذي كتبه **يواكيم يِرِيمِياس**[٥] Joachim Jeremias، وهو واحدٌ من أبرز علماء «العهد الجديد» في القرن العشرين الذين أمضوا سنواتٍ طويلةً في دراسة هذه النصوص دراسةً متعمِّقةً، ساعده فيها تمكُّنُه من اللغات القديمة التي كُتبت بها أصولُ هذه النصوص. وقد اتفق يِرِيمِياس في نهاية الأمر مع اللاهوتي الألماني **رُودُلف بولتمان**[٦] Rudolph Bultmann علىٰ أنه «يمكن القولُ دون أدنىٰ ريب: إنّ الحُلْمَ بكتابة السيرة الذاتية ليسوع قد انتهىٰ للأبد!». وهذا يعني أن حياةَ السيّد المسيح ـ كما عاشها بالفعل ـ لا يمكن إعادةُ نَسْجِها اعتماداً علىٰ ما ورد في «العهد الجديد»، بلا أيِّ درجةٍ من الثقة.

وبالإصغاء إلىٰ صوت العقل، حدّثَتْني نفسي بأنه إذا سُلِّمَ بمثل هذا الرأي من حَلِيفٍ للمسيحية وواحدٍ من أكبر خبرائها في دراسةِ وتحليل نصوصها المقدَّسة؛ فليت شعري ما الذي بقي لأعدائها أن يقولوه؟!

وما الذي يبقىٰ من الكتاب المقدَّس ذاتِه بعدَ تقريرِ أنه تسجيلٌ لبعض الحقائق ممزوجةً بخيالاتٍ هيَ افتراضاتٌ أسقطها على

يسوعَ أتباعٌ متأخِّرونَ عن زمانه، وكانوا ـ هم أنفسُهم ـ مختلفين فيما بينهم حولَ شخصية «المعلِّم» وتعاليمه؟!

وإذا كـان علماءُ اللاهوت المسيحي من أمثـال يِرِيمِياس قد استطاعوا ـ بصعوبةٍ وتكلُّفٍ بالغ ـ طمْأنةَ أنفسهم بإمكانية وجودِ ما يُسمَّى «يســوعَ التاريخي» ورسالتِـه تحت أنقـاض الإضافـات المتأخِّرة إلىٰ «العهد الجديد»، ولو علىٰ سبيل التقريب.. فكيف يمكن للشخص العادي العثورُ علىٰ ذلك فضلاً عن التحقق من صحّته؟!



لقد درستُ الفلسفةَ في الجامعة، ومنها تعلّمتُ طرحَ سؤالين مبدئيين علىٰ أيِّ مدَّعٍ لامتلاك الحقيقة: أولهما: ماذا تعني هذه الحقيقةُ بالتحديد؟ والآخر: كيف توصّلتَ إليها؟

وعندمـا طرحتُ سؤالَيَّ هذيـن علىٰ نفسي بشأن معتقداتـي الدينية لم أهتدِ إلىٰ جواب، وحينها.. أدركتُ أن المسيحيةَ قد سقطت من بين يديَّ! ونتيجةً لذلك قررتُ خوض تجرِبة البحث عن معنىً في عالمٍ لا معنىٰ له، وهي التجربة التي يمكن القول: إن كثيراً من الشباب في العالم الغربي قد خاضها، بصورةٍ أو بأخرىٰ.

الفلسفة ومفاوز التساؤلات

بدأتُ هذه الرحلةَ الشاقة من ذات الموضع الذي تخلخل فيه إيماني السابق. . مع الفلاسفة، ولكن لم تكن غايتي هي البحثَ عن فلسفة، بقدر ما كانت الوصولَ إلىٰ شاطىء إيمان، والعثورَ علىٰ منهجٍ في الحياة.

قرأتُ كتاباتِ المتشائم الأشهر آرثر **شوبنهاور**[٧] Arthur Schopenhauer التي تحدّثَت عن ظاهرة مراحل الحياة. وكان شوبنهاور يرىٰ فيها أن كلاً من المال والشهرة والقوة البدنية والذكاء. . كلُّها تذهب من المرء مع مر السنين، وأنه لا يبقى في النهاية سوى السموّ الأخلاقي. أثّرت فيَّ هذه الحقيقة، وما فتئتُ أتذكّرها عاماً بعد عام. ومما كانت مقالاتُ شوبنهاور تلفت النظرَ إليه: أنّ الإنسان في سِنيٍّ عمره المتأخرة كثيراً ما ينقلب علىٰ ما كان يتبناه بكل حماس في فَوْرة شبابه.

وهكذا. . وبدافعٍ من رغبةٍ غامضةٍ في ضرورة وِجدان الإلٰه، قررتُ إلقاءَ نفسي في خضَمٍّ أعتىٰ ما أمكنني الوقوفُ عليه من الأفكار والحجج الإلحاديةِ وأشدِّها إقناعاً، علىٰ أمل أن أتمكّنَ لاحقاً من مجاوزتها والاستقرار علىٰ شاطئ الإيمان. وفي هذا السياق قرأت ترجمات والتر كوفمان Walter Kaufmann لأعمال الفيلسوف الناقد **فريدريك نيتشه**[٨] Friedrich Nietzsche، ذلك المفكِّر العبقري متعدِّد المواهب، الذي تمكَّن من تشريح الأحكام الأخلاقية والمعتقدات الإنسانية عن طريق براهينَ ذكيةٍ: نفسيةٍ وأخرىٰ استخرجَها من تتبُّعِه للنصوصِ القديمةِ عبرَ عصور الحضاراتِ المختلفة (وهو ما يُسمّىٰ علمَ الفولولوجيا)، ليتوصَّل منها في نهاية المطاف إلىٰ نتيجةٍ محصَّلُها اتهامُ اللغة الإنسانية ذاتِها ـ خاصةً لغة العلم في القرن التاسع عشر ـ بأنها عاجزةٌ عن اكتشاف الواقع والتعامل معه كما هو، لأنها ـ في نظره ـ محدَّدةُ المضامينِ بمفاهيمَ متوارثةٍ من لغةٍ أخلاقيةٍ مثاليةٍ لا واقعية. لقد قاد هذا نيتشه إلىٰ الشك المطلق في الأحكامِ الأخلاقية، وبالتالي في مصدرِها من دياناتٍ وحضارات.

لقد وقّفتُ ـ بعد قراءاتي المتأملة لكتابات نيتشه ـ إلىٰ مناعةٍ فكريةٍ ضد مذهبه في الشك. وعلاوةً علىٰ ذلك، فقد كشفت لي كتاباته تلك أنّ أوروبا الآنَ هي مجتمعُ ما بعدَ المسيحية. كما

أنها تنبأت بدقةٍ بالغة بما سينتهي إليه القرن العشرون من وحشيةٍ لم يسبق لها مثيل. وبهذا كُشف عن زَيْف تلك الأسطورةِ الحديثة التي تقدِّم العلوم الكونية كبديلٍ أخلاقي للدِّين الذي أصبح ـ بنظرِ نيتشه ـ في عِدَاد الموتى!

وأما فيما يخصُّني شخصياً من فلسفة نيتشه؛ فقد أفادتني سهامُ تقريعه التي وجّهها إلىٰ المسيحية ـ خاصةً تلك التي ذكرها في كتابه «أصل الأخلاق» *The Genealogy of Morals* ـ في محاولة اختزال عقائد الأديان في عددٍ محصورٍ من الأشكال القابلة للتحليل، فإنه تمكّن من فصل التصوّرات غير الجوهرية ـ كذلك المشهد شديد الغرابة لانتحار الإلـه المقتدر علىٰ الصليب! ـ تمكّن من فصلها عن التصوُّرات الأساسية التي أدركتُ وقتئذٍ أنها ثلاثةٌ فقط، دون أن يعنيَ هذا الإدراكُ إيماني بها آنذاك، وهيَ: أنّ الله موجود، وأنه خلق الإنسانَ في هذا العالم وحدَّد له السلوكَ المطلوبَ منه اتباعُه، وأنه سيحاسِبُ الإنسانَ يوم القيامة بحسَب ما قدَّمت يداه لينتهيَ إلىٰ جزائه العادل: إما النعيم الدائم، أو العذاب المقيم. هذه الثلاثةُ كانتِ القاسمَ المشتركَ المتفقَ عليه بين الأديان المنزَّلة.

وفي هذه الفترة قرأت ترجمةً قديمةً للقرآن. وعلىٰ الرغم من بعض التحفظاتِ «اللّا أدْرِيَّة»(*) التي كانت تملؤني حينها. فقد نال هذا الكتابُ إعجابي، وذلك لما لمستُه فيه من صفاءٍ ووضوحٍ قدَّم بهما تلك التصوُّرات الأساسية التي أسلفتُ ذكرها. وأذكر أنني قلتُ في نفسي عقبَ قراءتي إياه: حتىٰ لو كان هذا الكتاب منحولاً.. فإنه لا يمكن أن يوجد تعبيرٌ عن الدِّين أكثرُ مساساً بجوهرِ القضية ولُبِّها منه!

وأما علىٰ المستوىٰ الأدبي؛ فقد كانت هذه الترجمة ـ وهي ترجمة **جورج سيل**[٩] George Sale على ما أتذكّر ـ تفتقر إلى الإثارة والطَّلاوة البيانية، فضلاً عن أن المترجِم كان صريحاً ـ في ترجمته هذه ـ في إظهار عدائه للقرآن، بينما كنتُ علىٰ علم بأن الأصلَ العربي معروف ـ من بين الكتب المقدسة الأخرىٰ ـ ببلاغته وجمال لغته. ومن هنا تولَّدت لديَّ رغبةٌ في تعلُّم اللغة العربية، حتىٰ أتمكّن من قراءة هذا الكتاب في لغته الأصلية ودون وسائط.

❁

(*) «اللا أدرية» هي: مذهبُ مَن لا يثبت وجودَ الإلـٰه ولا ينفيه، معبِّراً عن ذلك بـ (لا أدري).

وفي خِضَمِّ هذه الأفكار والتأمُّلات التي شغلتني، وقعَت لي حادثةٌ روحية مؤثِّرة. ففي إحدىٰ إجازات الجامعة كنتُ أسيرُ يوماً في طريقٍ ترابية وسط حقول القمح التي كانت حول قريتي، تحتَ شمس الأصيل الآزفة نحوَ الغروب.. فوقع في رُوعي وقتَها ـ بنوعٍ من الإلهام الغامض ـ أنّ هذا ينبغي أن يكون وقتَ عبادة، وقتاً يُسجَدُ فيه ويُصلَّىٰ للإلٰه الواحد خالقِ هذه السماء الفسيحة ومدبِّرِ هذه الأرض المنبسطة بما عليها من بشَرٍ ومخلوقاتٍ لا حصرَ لها. شعرتُ أنّ ثمةَ لغةً مشتركةً تتوجّه بها هذه المخلوقاتُ بصورةٍ أو بأخرىٰ ـ أو ينبغي لها أن تتوجّه بها ـ إلىٰ مبدِعها العظيم.

بالطبع.. لم يكن بمقدوري الاتّكاءُ علىٰ هذا الخاطر إلىٰ حدِّ تصوّر تفصيلاتٍ معينة لما يجب أن تكون عليه هذه العبادةُ المفترَضة.. ولكنه كان علىٰ أية حال ـ وعلىٰ الرغم من كونه خاطراً عابراً ـ بدايةَ وعي بأنّ الإلحادَ خِداعٌ للذات، وتنكُّرٌ للفطرة.



لقد حملتُ معي شيئاً من هذا القلق عند انتقالي من الجامعة الكاثوليكية إلىٰ جامعة شيكاغو لدراسةِ معرفيةِ (أبستمولوجيةِ)

النظرية الأخلاقيـة، وهي: المعرفـة بكيفية الوصول إلىٰ الأحكام الأخلاقية. وفي إطار ذلك.. عاودتُ القراءةَ والبحثَ فـي كتب الفلاسفـة عن شيءٍ يمكن أن يساهم في إلقاء الضوء علىٰ قضيـة العدميـة، وهي عدم وجـود معنىً وراء الحس، وبعبـارةٍ أخـرىٰ: عدم وجود معايير للأخلاق أصلاً، تلك القضية التي تورث الإنسان شعوراً قاتلاً بعبثية الحياة وعدم جدواها. لقد أثـارت تلك المسألة اهتمامي وشغلتني بشكـل شخصـي، وهي ـ فـي الوقت نفسـه ـ إحدىٰ أهم وأعقد الإشكاليات الفلسفية المعاصرة.

وممّا توصَّلتُ إليه وقتَها أن الملاحظةَ العلميةَ لا يمكنها ـ كما يرىٰ بعض الفلاسفة ـ أن تُنتِجَ سوى عباراتٍ وصفيةٍ علىٰ شاكلة:

(أ) هو (ب).

هذا الشيء أحمر.

وزنه: ٢ كيلو جرام.

ارتفاعه: ١٠ سنتيمترات.

وهكذا..

فالربط بين طرفي كلٍّ من هذه العبارات ـ بل وكل عبارات العالـم ذات المعنىٰ ـ هـو وصفٌ حسّيٌّ قابـلٌ للنظر والاختبـار، بينما يكون العنصر العامل في الأحكام الأخلاقية هو (يجب أنْ /

ينبغي أنْ)، وهي عبارةٌ وصفية لا تُستفاد من الحس، فلا يمكن للملاحظة العلميـة أن تختبرهـا ولا أن تثبتهـا، فلا يكون بذلك لـ(يجب أنْ / ينبغي أنْ) معنىً منطقيّ، وكذلك الأمرُ في سائر الأخلاق من حيث هيَ، فلا معنىٰ لها. والنتيجة من هذا: أنه لا صحةَ للأحكام الأخلاقية؛ لاستنادها إلىٰ هذا النوع من العلاقة.

وقد سُمِّيَ هذا الضربُ من الفلسفةِ الناقدة: الفلسفةَ الأخلاقيـة، أو لِنَقُل: اللاّأخلاقية! وقد ذكّرني هذا كلُّه بأولئك الذين وصفهم الفيلسوفُ الإغريقيُّ الساخر لُوشِن[١٠] Lucian في إحدىٰ نصائحه: «إذا رأيتَ فيلسوفـاً أخلاقيـاً قادمـاً نحوك.. ففِرَّ منـه فرارَك من الكلب المسعور!». وما ذاك إلا لأن مثل هذا الشخص لا حَكَمَ عنده سوى النفْعية والانتهازيـة، ولا يردعه ظاهـراً إلا موانـعُ العادات والتقاليد..



صيّاد في البحر

لمّا كانتْ تكاليفُ الدراسة في جامعة شيكاغو باهظةً؛ فقد كان عليَّ أن أعملَ في أثناء الإجازات حتىٰ أتمكّن من تغطية نفقاتها. وقد تيسّرتْ لي بالفعل فرصةُ عملٍ صيفية علىٰ ظهر أحد قوارب صيد الأسماك في (ألاسكا)، في الساحل الغربي لأمريكا.. وكانت تجرِبةً ثرية، مليئةً بالعِبَر والمشاهدات.

لقد برهن البحر بصورةٍ عملية أنه مدرسةٌ في حدِّ ذاته، فقد كنت أعود إليه طيلةَ ثمانيةِ أعوام، سعياً لكسب المال. وفي هذا الميدان التقيتُ بنماذجَ عديدةٍ من البشر، ورأيتُ طرفاً من قوةِ الرياح والأمواج والعواصف والأمطار وجبروتِها. وفي المقابل.. أحسستُ بمدىٰ ضآلة هذا الإنسان.

كانت هذه الأمور ملقاةً أمام أعيننا ـ أنا ورفاقي الصيادين ـ ككتابٍ هائل مفتوح. ولكن لم يُمكِنّا أن نلتقطَ مِن ذلك الكتاب

سوىٰ بضعةِ أحرُفٍ قليلةٍ في سياق عملنا كصيّادين : أن ننجحَ في صيد أكبرِ كميةٍ ممكنةٍ من السمك خلال الفترة المحدَّدة، لبيعها لسفن المصانع التي كانت تنتظر علىٰ الشاطئ!

نعم.. قلةٌ قليلة منا هي التي عرفت كيف تقرأ هذا الكتاب بتمامه.

في بعض الأحيان.. عندما كانت تهب العواصف الشديدة كانت الأمواج ترتفع كالجبال، بينما يتشبّث الرُّبّان بمِقْوَده بكلتا يديه حتى تبيضَّ بَراجِمُها.. وما يكاد قاربُنا يستقر علىٰ قمة الموج الشاهق حتىٰ ينحدر بسرعةٍ في وادٍ بحريٍّ سحيقٍ من الماء الأخضر.. وفي لحظةٍ تليها يكون قاربُنا قد عاود التحليق باتجاه السماء قبل أن يستقر علىٰ قمةِ موجةٍ مُزْبِدة، ثم ليغوص عميقاً مرة أخرىٰ.. وهكذا. ونحن في هذه الأثناء تتلاحقُ أنفاسُنا، وتبلغُ قلوبُنا الحناجرَ مع كل ارتفاعةٍ وانخفاضة، ولا نملِكُ من أمر أنفسنا شيئاً!

في تلك اللحظات يدرك الإنسان مدىٰ ضعفه وقلة حيلته.



وكنتُ قد قرأتُ في بداية عملي هذا ـ ملاّحاً علىٰ متْن أحد القوارب ـ ترجمةَ هازل بارنز Hazel Barnes لكتاب «الوجود

والعدم» *Being and Nothingness* لمؤلفه **جان بول سارتر**[11] Jean Paul Sartre، الذي احتجَّ فيه لفكرته القائلة بأنّ الظواهرَ الكونية لا يعيها الإنسانُ إلا في إطار اهتماماته البشرية. ويستدعي هذا إلىٰ الذهن ما سبق **لماركس**[12] أن طرَحَه في كتاباتـه عـام ١٨٤٤، حين كان يزعم أن الطبيعة تتبع درجةَ وعي الإنسان ونظرتَه إليهـا، فما يدركـه الإنسان من الطبيعـة إنما هو علىٰ وَفْقِ تلك الرؤية ومدىٰ اتساعِ نظره فيها. فالطبيعةُ عنده ـ بهذه النظرة ـ هي من صنع الإنسان وإنتاجه. وكان يعني بذلك أنّ الناسك ـ علىٰ سبيل المثـال ـ عندمـا يقع بصـره علىٰ أَجَمـةٍ من الأشجار فإنـه يتأملها، ويَفترِض وعيُه دلالةً مختلفةً عما يفترضه وعيُ كلٍّ من الشاعر أو الرأسمالي. فهذه الأشجار تغدو في نظر ذلك الناسك تجلِّياً وإشراقاً ذا دلالة روحية عميقة. وفي الوقت نفسه يرىٰ فيها الشاعر صورةً شعريـةً موحيةً بوصفٍ أو تشبيـه. أما الرأسمالي، فإنـه لا ينظر إليها إلا باعتبارها كومةً من الأخشاب التي يمكن أن تُستثمر في أكثر من وجهٍ مربح. وبمثل هذه النظرة فإنّ الجبل ـ مثلاً ـ مرتفعٌ بالنسبة لمن يريد تسلُّقَه، بينما يراه منخفِضاً من يركب الطائرة المحلِّقة فوقه، وهكذا الأمرُ في مختلف الظواهر التي تحيطُ بالإنسان.. لا تتحدَّد إلا فـي إطار العلاقات النسبيـة والمصالح البشرية.

ولكنّ الظواهرَ الطبيعية الهائلة في البحر ـ التي كانت تحيط بنا دائماً ـ كانت تبدو بواقعيتها الصارمة التي لا تقبل الاختزال وكأنها تتحدّىٰ بعنادٍ محاولاتِنا القاصرةَ لتفهُّمها واستيعابها، فضلاً عن إعادة إنتاجها وَفْقاً لرؤيتنا! لقد كنا نجد أنفسَنا في خِضَمِّ أحداث البحر نرتجف تحت وطأة القوىٰ المحيطة بنا دون قدرةٍ علىٰ تفهُّم كنهها، متسائلين عمّا إذا كانت ستمرُّ بنا بسلام أم لا . .

نعم . . كان بعضنا في تلك اللحظات العصيبة يدعو الله تضرُّعاً وخُفية، ولكنْ فورَ انكشافها ووصولنا إلىٰ بر الأمان كنا نُعرِضُ ونتصرَّفُ تصرُّفَ من لم يعرف عن الله إلا القليل . . وكأنّ لحظاتِ التضرُّع تلك لم تكن إلا انحرافاً نحو جنونٍ مؤقَّت يخجَل الواحد منا من تذكُّره في أوقات الراحة والدَّعَة!



وممّا تعلّمتُه منَ البحر أنّ تلك اللحظاتِ العصيبةَ ليست حدَثاً عابراً في حياتنا، بل هي الغالبُ علىٰ سنوات العمر، لكن بصورٍ مختلفة، كالأسقام المُضنية، والفاقات المادية، وهَرَم الإنسان وعجزه، والموت . . مما قد يكون الواحدُ منها في حياة الإنسان بحراً أشدَّ من أعتىٰ البحار. لقد بدا ليَ الإنسانُ بالفعل صغيراً

وضعيفاً، بينما تحيط به القوىٰ الهائلة والأحداث التي لا يملك إزاءها تصرُّفاً، فضلاً عن أن يكون له تحكُّمٌ فيها.

وأحياناً ما كانت سفنٌ تغرق ويموت بعضُ رجالها. وما زلتُ أذكرُ أحدَ الصيّادينَ الذين كانوا يعملون في قارب آخر علىٰ مقربةٍ منّا، كنتُ أُلاحظُه لأنه كان يقوم بنفس مهامِّ عملي، وهي جمعُ ورصُّ شباك الصيد. كان يسحب الشبكةَ بالرافعةِ المائية (الهيدروليكية) المنتصبةِ فوقَه، ثم يقوم بوضعها بنظامٍ في مؤخَّرة السفينة تمهيداً لاستخدامها ثانيةً في الجولة التالية. وكان يحدث أن تلتقيَ أعينُنا أثناء انهماكنا في ذات العمل، فنتبادلَ ابتسامةً خفيفةً مشجِّعة. وبعد بضعة أسابيع انقلب قاربُ ذلك الصيّاد وسطَ البحر عندما أطاحت به عاصفةٌ هوجاء، فوقع في شَرَك شِباكه التي التفّت عليه وسحبته حتىٰ غرق. ولم أرَه بعد ذلك إلا في منامي، رأيتُه مرةً حبيساً في شبكته تحت الماء غريقاً، وقد طفا شعره وانتشر حول وجهه، وكان كأنه يلوِّح بيده يريد أن يخبرني بشيء.. ومرةً أخرىٰ رأيتُه واقفاً في مؤخَّرة قاربه كعادته، وجعل يدعوني بيده لآتي إليه.. وكأنه يدعوني لألحق به في مصيره المجهول..

كنا نعيش في قلب هذه المشاهد الرهيبة، من عواصفِ الرياح والأمواج، والجروفِ الصخرية الشاهقة التي كانت تعلو مئات الأقدام فوقنا، وموجاتِ الصقيع والأمطار، والتعبِ والنصَب

والحوادث، وموتِ بعض البحّارة بين الحين والآخر. لكنّ هذا لم يؤثّر علىٰ جُلّنا إلا تأثيراً قليلاً لم يلبث أنْ يتبخَّر، إذْ أليس من المفترَض أن يكون الصيادون أشدّاءَ لا يعرفونَ الخوف؟!.. وهكذا، لم نستوعب درس البحر كما ينبغي.



لكنْ ممّا أثّر في قلبي وهزّ مشاعري بالفعل: حالُ الناس الذين رأيتهم وعرفتهم في تلك المواطن.

من ذلك أنّ إحدىٰ العائلات التي يشترك أبناؤها في العمل علىٰ متْن سفينتهم، كانت تفقد مع نهاية الموسم ـ أثناءَ سفرها في عُرض البحر ـ بعضَ ملاّحيها الذين يعملون معها عملاً موسمياً، ودوماً لم يكن الملاّح المفقود إلا ذاك الشخص الغريب عن العائلة! وبذلك كانوا يوفّرون ـ كما قيل ـ راتباً كاملاً استُحِقّ عن عملِ موسمٍ أوشَكَ علىٰ الانتهاء!

رُبّانُ سفينةٍ أخرىٰ.. كان يبلغ من العمر سبعةً وعشرين عاماً، ويقوم سنوياً بتوريد مئات الأطنان ـ التي تُقدَّر قيمتها بقرابة المليون دولار ـ من سرطان البحر (الكابوريا) في بحر بيرنج the Bering Sea. عندما سمعتُ عنه لأول مرة كنا في مدينة (كودياك)، كانت سفينته قد رست من أيام علىٰ رصيف البلدية

في الميناء، حيث ترسو سفن الغرباء من غير أهل المدينة، واستقر بعد رحلةٍ طويلة قضاها في البحر. وكان هذا الربّان الناجحُ يومَها متوعِّك الصحة، ملازماً للفراش في حجرته الخاصة.. كان يتقيأ الدم علىٰ السجاد الأنيق بعد أن أكل في إحدىٰ الحانات كأساً من الزجاج ليثبت لرفاقه مدىٰ شدّته وبأسه!

وقُدِّر لي أن أراه بعد ذلك في نهاية موسم شتائي طويل قضاه في اصطياد سرطان البحر الملكي، وكان يبدو في حالة صحية أفضل. كان يعمل في غرفة القيادة المتربِّعة علىٰ قمة السفينة، محاطاً بأجهزة سَبْر الأعماق ورصْد الآفاق وأجهزة الاتصال التي يستطيع بها التقاط الموجات علىٰ اختلاف أنواعها من أي بقعةٍ من بقاع العالم، مهيمناً بما لديه من لوحات التحكُّم والأضواء والأزرار التي تراقب وترصد كلَّ شيءٍ في السفينة وفيما حولها من البحر والجو والبر. كانت غرفة القيادة تلك تشرف ـ بشبابيكها المضادة للكسر وإطلالتها الكاشفة حولها علىٰ نطاق ١٨٠ درجة ـ كانت تشرف علىٰ البحر من حول ذلك الربّان، مراقباً منها رجالَه علىٰ متن السفينة، الذين لم يكن يخاطبهم ويأمرهم في ساعاتِ العمل إلا عبرَ مكبِّر الصوت كأنما لا معقِّبَ لحُكْمه! وكثيراً ما كان يعمل أولئك الرجالُ بلا توقف علىٰ مدار الساعة، وكانوا ينتشلون أقفاصَ الصيد من الماء الشديدِ البرودة تحت أنوار الكشّافات

الضخمةِ المعلَّقـةِ بالسواري، تلك الكشّافـات التي كانت تجعل من الليل الدائم في أشهُر الشتاء بالمناطق القطبية: نهاراً مضيئاً.

عاقبَ هذا الرُّبّـان ـ المشهور بسَوْرةِ الغضب والشدة ـ مـرةً طاقمَ سفينتِهِ كلّه بتركهم تحت الأمطار أعلىٰ السفينة لإحدى عشرة ساعة! لمجرَّد أنّ أحدَهم تجرَّأ وتسلّل إلىٰ داخل السفينة ليتناول فنجاناً من القهوة دونَ إذنه! ولذلك قلَّ منَ الملاّحينَ مَن أطاق العمل معه لأكثـرَ من موسم واحـد، علىٰ الرغم من أنهم كانـوا يحصُلون في مدةٍ لا تتجاوز ستةَ أشهر علىٰ ضعف ما يحصل عليه في سنةٍ كاملةٍ: محامٍ ناجحٌ أو مديـرُ شركـة إعلانـات(*). ثروةٌ طائلةٌ كان بإمكان المرء أن يجمَعَها في تلك السنوات بعمله في بحر بيرنـج، وذلك قبـل أن ينضُبَ سرطانُ البحر بسبب الصيـد الجائر.

وجدنـاه هذه المرة وسفينتُـه راسيـةٌ في البحر، بحرِ بيرنج، فربطنـا قاربنا إليها، وجاء إلينـا ليجلس إلىٰ رُبَّانـنـا. كـان لطيفَ المَعْشَرِ فـي هذه المرة. تحدَّث الرُّبّانـان إلىٰ بعضهمـا طويـلاً، وكانـا تـارةً يحدِّقـان باستغراق تجاه البحر من خـلال النوافـذ أو

(*) وهاتان الوظيفتان من أعلىٰ الوظائف عائداً في الطبقة الوسطىٰ من مجتمع الغرب.

الباب، وتارةً أخرىٰ كان أحدُهما ينظر إلىٰ عَيْنَي صاحبه مباشرةً لدىٰ انفعاله بشيءٍ ما، كانفعال صاحبنا عندما وصل حديثهما إلىٰ ما يردِّدُه عنه منافسوه، فقد احتدَّ قائلاً: «إنهم يتساءلون عن ثروتي.. لكنهم لا يعلمون أنني لم أنم في بيتي إلا ليلةً واحدةً طوال العام الماضي!».. وبعد حينٍ أصدر أوامره لرجاله بإلقاء حبالنا إلينا ورفْع مرساة سفينته.. بينما كانت عيناه الثاقبتان لا تكفّان عن مراقبة البحر بيقَظةٍ من نوافذ غرفة القيادة.. وفارقتنا سفينته الكبيرة شاقّةً طريقها في البحر، مخلِّفةً وراءها سحابةً من الدخان.. لقد ذكّرتني اليقظة الشديدة لذلك الربّان، وبدانته وكأنه فيل البحر، وأسفاره اللامتناهية في صيد الأسماك وبيعها.. ذكّرني هذا كلُّه بكائناتِ البحر ذاتِ البأس التي لا تكِلُّ من الاصطياد ليلَ نهار.. لقد حصل هذا الإنسان علىٰ ما حصل عليه، لكن بأيِّ ثمن؟!

إنّ أمثالَ هؤلاء البشر الماهرين في جمع الثَرَوات ـ غافلينَ عن أية غايةٍ أخرىٰ لوجودهم في الحياة ـ كانوا يتركون في نفسي تساؤلاتٍ متزايدة: هل كانوا بالفعل غيرَ محتاجينَ إلىٰ مبادىءَ تُوجِّههم وتهديهم إلىٰ المعنىٰ الحقيقي لوجودهم؟ فإنه دونَ مثلِ هذه المبادىء العليا لا نكون أحسنَ حالاً من كائنات البحر تلك، سوىٰ أننا ـ بما لدينا من قدراتٍ تقنية ـ أشدُّ فتكاً منها وأوسعُ دماراً.

عودة إلى الفلسفة

كانت تلك التأملات والعِبَر تجول في ذهني في السنة الثانية من دراستي بجامعة شيكاغو، حيث أدركْتُ ـ من دراستي للأنظمة الفلسفية للأخلاق ـ أنّ الفلسفةَ لم تُجْدِ في الماضي في التأثير على أخلاق البشر وقِيَمِهم، ولم تمنعهم من الظلم. كما أدركْتُ أنه لا يوجد أملٌ كبير في أن تتمكّن من ذلك في المستقبل.

ثم إنني وجدتُ أن المقارنةَ بين الثقافات والمجتمعات الإنسانية في تعدّدها وتواليها عبر التاريخ قد أدّت بكثيرٍ من مفكّري العصر الحديث إلىٰ تبنّي النسبية في الأخلاق؛ حيث إنه لم توجد ـ حسب تصوُّرهم ـ أيةُ قيمةٍ أخلاقية كانت صحيحةً بحدِّ ذاتها في نظر جميع تلك الثقافات، الأمرُ الذي يؤدِّي إلىٰ العدمية، أي: أنّ قِيَمَ الحضاراتِ الإنسانيةِ وأخلاقياتِها ليسَ فيها ما يصحُّ ويثبت، فهيَ لم تنزل من السماء، وإنْ هيَ إلاّ نباتاتٌ تنبثق ـ علىٰ اختلاف بذورها وتربتها ـ من الأرض، لتبقى يانعةً حيناً قبل أن تذويَ وتندثر!

وقد بشّر بعضهم بهذا التصوُّر علىٰ أنه تحرُّرٌ فكري، من أمثال إميل دوركايم[١٣] Emile Durkheim في كتابه «الأشكال الأساسية للحياة الدينية» *Elementary Forms of the Religious Life*، وسيجموند فرويد[١٤] Sigmund Freud في كتابه «الطَّوطَم[(*)] والمحرَّم» *Totem and Taboo*. تعامَلَ هذانِ المفكِّران مع الجنس البشري باعتباره شخصاً مريضاً، ثم شخّصا الأديان علىٰ أنها نوعٌ من الاضطراب العصبي الجماعي، إلا أن ثمة أملاً في علاجه بالتوغُّل في الإلحاد العلمي الكامل، كنوعٍ من الخلاص عن طريق العلم البحت.

وحول هذا الموضوع اقتنيتُ ترجمةَ جيريمي شابيرو Jeremy Shapiro لكتاب «المعرفة والمصالح الإنسانية» *Knowledge and Human Interests* لـ يورجن هَبِرْماس[١٥] Jurgen Habermas، الذي رجع فيه عن النظرية السابقة قائلاً بأنه ليس هناك ما يسمَّىٰ (العلمَ البحت) الذي يمكن الاعتمادُ عليه في قيادة نفسه وقيادة العالم إلىٰ الأمام بخطىً ثابتة، مؤكِّداً أنّ سوءَ الفهم هذا هو مجرَّد (نزعةٍ علمية) وليس (علماً). وذهب إلىٰ أنّ العلمَ في الواقع

(*) الطوطم: شيء، كحيوان أو نبات، يُتخذ رمزاً للعشيرة. وهو تقليد يُعرف عند الهنود الحمر.

الإنساني ليس خالياً من القِيَم فضلاً عن المصالح ؛ فنوعيةُ البحوث العلمية التي تحصُل علىٰ تمويل من مجتمعٍ ما علىٰ سبيل المثال، ليست إلا أداةً لإنتاج ما يعتبره هذا المجتمع ذا معنىً ومهماً ونافعاً ماديّاً.

وهَبِرْماس كان ينتمي إلىٰ ذلك الجيل من الأكاديميين الألمان الذين كانوا يعرفون ما يحدث في مجتمعهم خلال الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، ولكنهم مع هذا أصرُّوا علىٰ أن وظيفتَهم تنحصر في (الإنتاج الفكري) وحَسْب، وأنهم يعيشون في عالم البحث، وليس عليهم أن يهتموا بالطريقة التي ستقوم بها الدولة لاستغلال ثمرة بحوثهم. لكنّ اللومَ والانتقادَ الشديدَ الذي وُجِّه لأولئك العلماء الألمان في شأن الفظائع النازية اللاإنسانية التي وقعت من دولتهم في الحرب العالمية الثانية؛ هو الذي جعل هَبِرْماس يعيد التفكيرَ مليّاً ـ كما تقدَّم ـ في أيديولوجية (العلم البحت) التي كان يتبنّاها ثم انسلخ منها.

وإن كان ثمّةَ شيءٌ واضحٌ فهو أنّ تفاؤلَ مفكِّري القرن التاسع عشر ـ من أمثال فرويد ودور كايم ـ بتقدُّم العالَمِ بالعلوم البحتة: لم يعد أمراً يمكن الدفاع عنه أو التمسُّك به بحال.



وبتأثيرٍ من هذه القراءات، بدأتُ بإعادةِ التقييم للحياة الفكرية من حولي.

ومثلَ شوبنهاور، كنتُ أعتقد أنّ التعليمَ العالي لا بد أن يثمرَ أشخاصاً نبلاء، ولكنني وجدتُ في الجامعة أناساً في المختبرات العلمية يتحدّثون عن «تعديل» (أو بمعنىً أدق: تزوير!) بيانات بحوثهم لتبدوَ ناجحةً ومُجدية، كي يحصلوا علىٰ التمويل في العام المقبل. وشاهدت أساتذةً بارزين في حقول اختصاصاتهم يرفضون السماح بإدخال أجهزة التسجيل الصوتية أثناء محاضراتهم لئلا تنتقل إلىٰ منافسيهم في نفس الحقل فيطوِّروها خطوةً إلىٰ الأمام فيسبقوهم إلىٰ نشر نتائج أبحاثهم، اهتماماً منهم بالسبْق لا بالعلم! كما قابلت بعض الأساتذة الذين يتبارَوْنَ فيما بينهم مَنْ يقدِّمُ قائمةً أكبرَ من الكتب المقرَّرة على الطلبة؛ تباهياً وافتخاراً!

لقد وجدتُ النقائصَ الأخلاقية ـ التي تعوَّدتُ أن أراها في رَعاع الناس المعاندينَ في أصلهم للنظُم الأخلاقية ـ وجدتُها في أوساط الجامعيين ذوي الثقافة الرفيعة، تماماً كما هي في بيئة صيادي الأسماك!

فإذا كان بوسعنا أن نضحك من أولئك الصيادين الذين كانوا يمخُرون بقواربهم جيئةً وذهاباً علىٰ مرأى رفاقهم لِيُروهم كم

هي غائرةٌ قواربُهم في الماء لِثِقَل ما تحمله من الصيد الوفير! متظاهرين بالبحث عن المزيد من الصيد! إن جاز لنا الضحك من هؤلاء فماذا يمكن أن يُقال في حمَلة (الدكتوراه) الذين يتصرّفون بالطريقة نفسها في كتبهم ومقالاتهم العلمية؟!

لقد شعرتُ يقيناً أنّ عِلْمَ هؤلاء لم يرتقِ بشَخصياتهم، وأنّ سرَّ الإنسان النبيل لا يكمن في اتساع ثقافته!



وبدأت أتساءل عمّا إذا كنت قد قطعتُ أقصى ما يمكن أن يقطعه المرءُ علىٰ درب الفلسفة. فبينما استطاعت الفلسفة أن تكشف لي زَيفَ مسيحيتي، وأن تُبصِّرني ببعض الحقائق الهامة، إلا أنها عجَزَت ولم تتمكَّن بعدُ من الإجابة عن تساؤلاتي الكبرىٰ. وعلاوةً علىٰ ذلك شعرتُ أنّ هذا العجزَ مرتبطٌ بطريقةٍ ما ـ لا أدري كنتيجةٍ هيَ أو كسبب ـ بعجز تراثنا الفكريِّ ذاك عن إدراك ذاته بشكلٍ جوهري، أي: أنه لم يدرك لماذا وُجد أصلاً! فمَن نكون نحنُ ـ سواءٌ كنا فلاسفةً أو صيادين، أو عمّال قُمامة أو ملوكاً! ـ إلاّ مجرَّد ممثلينَ صغاراً نؤدي أدواراً صغيرةً في مسرحيةٍ لا نفهمها. نؤدِّي أدوارنا بعنايةٍ إلىٰ أن يصلَ بديلٌ آخرُ يَحُلُّ محلنا، وعند ذلك نقوم بأداء مشهدنا الأخير مودِّعينَ المسرح؟! لكن

هل للإنسان أن يصبوَ في فهم حياته إلىٰ أُفُقٍ أوسعَ من تلك الصورة المسرحية؟

بحثاً عن جوابٍ لهذا السؤال قرأتُ في هذه الفترة كتاب كوجيف[١٦] Kojeve «مدخل إلىٰ قراءة هيجل[١٧]» *Introduction to the Reading of Hegel*، الذي أوضح فيه أن الفلسفة عند هيجل ليس من غايتها أن تُنتجَ نظاماً فكرياً، بل إنّ هدفَها يتلخّص في إيجاد (الإنسان الحكيم) القادر علىٰ الإجابة عن أي سؤال محتمَل حول مسائل الخير والشر في أفعال البشر. وهذا ما دفعني إلىٰ التفكير في معضِلتنا في هذا القرن العشرين الذي لم يَعُدْ يستطيع الإجابةَ عن سؤالٍ أخلاقيٍّ واحد!

وهكذا يبدو الأمر وكأنّ ما حققناه في هذا القرن من هيمنةٍ لا نظيرَ لها علىٰ العالم الواقعي للأشياء، قد انتهىٰ بنا إلىٰ تحوُّلِنا نحن إلىٰ مجرَّدِ أشياء![١٨].

وقد قارنتُ ذلك بمفهوم (الواقعي) الذي توصَّل إليه هيجل في كتابه «ظواهريّة العقل» *Phenomenology of Mind*. وكمثالٍ لما هو (مجرَّدٌ) وما هو (واقعي) ـ حسب اصطلاح هيجل ـ فإنّ الحقيقة المادية المحدودة للكتاب الذي بين يديك الآن ليست (واقعاً) عند هيجل، بل هي (المجرَّد)، بينما (الواقعي) هو ما تعطيهِ

ارتباطاتُ هذا الكتاب بحقائقَ أوسعَ يفرضها وجود الكتاب أصلاً، كأساليبِ الإنتاج التي حدَّدت نوعية الورق والحبر المستخدمَيْن، والمعاييرِ الجماليةِ التي حدَّدت تصميمَه، ونُظُمِ تسويقِه وتوزيعِه حتىٰ وصل إلىٰ القارئ، والظروفِ التاريخية التي ساهمت في تكوين ثقافة القارئ وذوقه، والأحداثِ الثقافية التي وجَّهت أسلوبَ الكتاب وتعابيرَه.. أي باختصار: (الواقع الأكبر) الذي في سياقه خرج الكتاب.

فعند هيجل: حركةُ البحث الفلسفي كانت تقود دوماً من (المجرَّد) إلىٰ (الواقعي)، أي: إلىٰ ما هو أكثرُ واقعيةً وأوسعُ وأظهرُ ارتباطاً مع الوجود ككل. وبناءً عليه كان هيجل يقول بأن الفلسفةَ مرحلةٌ تؤدِّي لا محالةَ إلىٰ اللاهوت الذي موضوعُه هو (الواقع الأحقّ)، وهو الإله. فلا وجودَ لشيءٍ من المجرَّدات ـ أي: الكائنات ـ إلا بالإضافة إلىٰ وجودها بذلك (الواقع).

لقد رأيتُ في هذا الأمرِ إشارةً إلىٰ وجود نقصٍ جوهري ـ لا سبيلَ لتجاهله ـ في سيرة هذا القرن العشرين. وبدأت أتساءل عمّا إذا كنا قد أشبعنا ثقافتَنا وماضيَنا بكل ما هو ماديّ، وبالتالي جرَّدنا أنفسَنا من إنسانيتِنا بمفهومها الأوسع، كما جرَّدْنا أنفسَنا من فطرتها وعلاقتها بحقيقةٍ عليا!

المنقذ من الضلال

وفي تلك الفترة الفاصلة قرأت أيضاً عدداً من الكتب عن الإسلام، كان من بينها كتبُ **سيّد حسين نصر**[١٩]، الذي وجدته يركّز كثيراً علىٰ أن مشكلاتِ الإنسان في الغرب ـ وخاصةً المتعلِّقة منها بالبيئة ـ حدثت نتيجة هَجْرِه الحكمةَ الإلٰهيةَ التي جاء بها الدينُ المنزَّل، الذي يُعلِمُه بمكانته الحقيقية كمخلوقٍ لله مستخلَفٍ في العالم الطبيعي. وعليه؛ فإنّ الواجبَ علىٰ الإنسان هو أنْ يفهمَ هذا العالَمَ ويحترمَه ويضبطَ تعاملَه معه، وإلا؛ فإنه بدون هذه الحكمة يَخْبِط في العالم علىٰ غير هدىً، فيُهلكُ مثلاً مواردَ الطبيعة بأساليب الاستغلال التجاري ذات التقنيات المتطورة، فيدمِّرُ عالمَه المحيطَ به، في الوقت الذي يَنْخَرُ فيه الفراغُ داخلَه بصورةٍ متزايدة. وهذا كلُّه بسبب عدم إدراكه عِلّةَ وجوده، ولا إلىٰ أية غايةٍ ينبغي أن يكون سعيُه.

قلتُ في نفسي: إنّ هذا قد يكون صحيحاً في حدِّ ذاته، ولكنه مصادَرةٌ علىٰ المطلوب، لأنه لم يُبِنْ ابتداءً عن مدىٰ صحّة هذا الدِّين

المنزَّل الذي يشير إليه. فكل شيءٍ علىٰ وجه الأرض، وكل الأنظمة الأخلاقية والدينية: علىٰ قدم المساواة، إلا إذا تيقن الإنسانُ أنَّ أحدها بالذات جاء من مصدرٍ أعلىٰ، حيث يكون ذلك المصدرُ هو الضامنَ الوحيدَ لموضوعية ذلك النظام الأخلاقي أو الديني، بل ويكونُ أساسَ حجّيّتِهِ. وإلا؛ فإنّ مجرَّد رأي شخصٍ ما لا يمكن أن يكون أفضلَ ـ في حدِّ ذاته ـ من رأي شخصٍ آخر، ولَبقِينا بذلك تائهين في بحر متلاطم من المصالحِ الفرديةِ المتضاربة، لا يمكن فيه الاحتجاجُ بشيءٍ إزاءَ أكلِ القويِّ للضعيف!

ثم قرأتُ بعد ذلك كتباً أخرىٰ عن الإسلام. وكان من بينها مقاطعُ ترجَمَها **مونتْغُمْري وات**[٢٠] W. Montgomery Watt من كتاب «المنقذ من الضلال» لحجّة الإسلام **أبي حامد الغزالي**[٢١]، الذي أدرك ـ بعد أزمةٍ روحيةٍ عنيفةٍ أصابته في كهولته وتخلّلتها شكوكٌ وتساؤلات ـ أنه «ليس وراءَ نور النبوة علىٰ وجه الأرض نورٌ يُستضاء به»، وهي النتيجةُ نفسُها التي أدَّت إليها بحوثي الفلسفية. وهذا هو ـ وفْقاً لمصطلح هيجل ـ (الإنسانُ الحكيم)، وهو وحدَه صاحب المرجعيةِ الحقّة في الإجابة عن الأسئلة التي تتناول مسائل الخير والشر. وقد ظهر لي أنّ وجودَ مثلِ ذلك الإنسان متعذِّر، إلاّ أنْ يتمثَّلَ ذلك في شخصيةِ رسولٍ يُوحىٰ إليه.

قرأتُ أيضاً ترجمةَ آربري[٢٢] A. J. Arberry للقرآن الكريم التي سمّاها: «القرآن المفسَّر» *The Koran Interpreted*، وتذكّرت رغبتي المبكِّرة في العثور علىٰ نصٍّ إلهيٍّ منزَّل بعد أنْ فقدتُ بغيتي من وِجدان ذلك في الإنجيل.

ورغم أنّ ترجمةَ القرآن لا تستطيع، مهما بلغت جودتها، نقلَ روحِه الخاصةِ التي يستشعرها قارئه بالعربية؛ إلاّ أنّ تفوُّقَ القرآن في ترجمتِه هذه قد ظهر ـ في كل سطرٍ من سطوره ـ علىٰ «الكتاب المقدَّس» بعَهْدَيْه، وشعرتُ كما لو أنّ حقيقةَ الوحي الإلٰهيِّ ـ الذي سمعتُ عنه بشكلٍ باهتٍ طِيلةَ حياتي ـ قد مَثُلَتْ نُصبَ عينَيّ.. لقد رأيتُ في هذا الكتاب ـ بأسلوبه الرفيع، وقوّته، وحجِّيتِه التي لا تقبل الردّ، وطريقتِه المدهشة في استباقِ حُجَج القلب الملحِد والإجابةِ عنها قبلَ طرحِها ـ رأيتُ في ذلك كلِّه بياناً واضحاً للإلٰه كإلٰه، وللإنسان كإنسان؛ بحيثُ أنّ الوحيَ بوحدانية الإلٰه الذي يثير الخشيةَ والإجلال له هو نفسُه الوحيُ المتنزِّل بالعدالة الاجتماعية والاقتصادية بين البشر.

وفي هذه الفترة بدأتُ تعلُّم اللغة العربية في جامعة شيكاغو. وبعد عامٍ أمضيته في دراسة قواعد اللغة العربية بقسطٍ من النجاح، قررتُ الحصولَ علىٰ إجازةٍ لأتمكَّنَ من تحسين مستوىٰ لغتي،

وذلك بقضاء سنةٍ من الدراسة الخاصة في القاهرة. وكان في نفسي سببٌ آخر لهذا القرار، هو رغبتي في التعرُّف علىٰ آفاقٍ جديدة. وهكذا، وبعد موسمٍ ثالثٍ قضيتُه في صيد الأسماك.. توجّهت إلىٰ الشرق الأوسط لأول مرةٍ في حياتي.



في القاهرة

وفي مصر . . وجدتُ ما أعتقد أنه سببُ انجذابِ كثيرٍ من الناس نحوَ الإسلام، وأعني بذلك أثرَ التوحيد الخالص على أتباعه، ولا أظن أني شاهدتُ شيئاً من قبل أكثرَ عمقاً من هذا الأثَر، فقد تنقّلتُ في نواحي القاهرة وغيرها: أراقبُ الناس، وأتأمَّل في عاداتهم ومعايشهم، وقابلتُ كثيراً من المسلمين مِن صالحينَ ومَن دونَهم، كانوا جميعاً متأثّرينَ بتعاليم كتابهم بدرجةٍ أكبرَ مما شاهدتُه في أي مكان آخر.

كان ذلك في أواخر عام ١٩٧٦ . مضىٰ علىٰ ذلك سنين، ولا أستطيعُ الآنَ تذكُّر كلِّ هؤلاء الأشخاص بأعيانهم، ولكنْ لعلَّ أولئك الذين أستطيع تذكُّرَهم الآن يقدِّمون فكرةً عن الانطباعات التي تولَّدت لديَّ من مخالطتهم:

من هؤلاء . . رجلٌ رأيته بالقرب من حدائق مِقْياس النِّيل، حيث اعتدتُ التمشِّيَ هناك على ضَفّة النيل الغربية. شاهدتُ هذا

الرجل وهو يصلّي علىٰ قطعةٍ من الورق المقوّىٰ وصفحةُ الماءِ من أمامِه. كنتُ علىٰ وَشْك المرور بين يديه، ولكنني تداركتُ نفسي فجأةً ودُرْتُ من خلفه كي لا أُزعجه. وعندما وقعَتْ عليه عيني للحظةٍ، وجدته مستغرِقاً تماماً في صلته بالله، غائباً عن وجودي، فضلاً عن أنْ يكترث لرأيي فيه أو في دينه! كان ثمةَ شيءٌ ذو معنًى في حال ذلك الرجل. وكان المشهدُ كلُّه غريباً جداً بالنسبة لشخصٍ مثلي قادمٍ من الغرب، حيث تكاد صلاةُ الرجل علىٰ الملأ تكون الأمرَ الوحيدَ الذي بقيَ مستهجَناً في الغرب الذي لم يَعُدْ يَستَهجِنُ شيئاً!

ومنهم.. فتىً من مدرسةٍ ثانوية، ألقىٰ عليَّ التحيةَ بالقرب من خان الخليلي، ولأنني أتكلّم بعضَ العربية، وهو يتكلّم بعضَ الإنجليزية، وأراد أن يحدِّثني عن الإسلام؛ فقد سِرْنا سويةً لعدة أميال، عبرنا خلالها وسط القاهرة وجسراً علىٰ النيل حتىٰ وصلنا إلىٰ الجيزة. كان الفتىٰ يحاول قدرَ استطاعته ـ طِيلةَ مَسيرنا هذا ـ أن يشرحَ لي شيئاً عن الإسلام.. وعندما افترقنا أظن أنه دعا لي بالهداية..

ومنهم.. صديقٌ يمنيٌّ كان يعيش في القاهرة، أحضر لي يوماً بطلبٍ مني مصحفاً ليعينني علىٰ تحسين عربيتي. ولم تكن هناك طاولة بجانب الكرسي الذي اعتدت الجلوس عليه للقراءة في غرفة

الفندق الذي أقمتُ فيه لفترة، فكان من عادتي رصُّ الكتب علىٰ الأرض. وعندما وضعتُ المصحفَ إلىٰ جوار الكتب الأخرىٰ (علىٰ الأرض)، انحنىٰ صديقي بهدوءٍ دون أنْ يقول شيئاً، ورفع الكتاب إجلالاً له. لقد أثَّر هذا الموقف في نفسي كثيراً، فإنني كنتُ أعلم أنّ صديقي هذا لم يكن متديِّناً، ولكنْ هنا ظهر أثرُ الإسلام فيه.

وأخيراً. علىٰ ضفة النيل في الأُقصُر، قابلتُ امرأةً عجوزاً أثناء سيري بجوار دراجتي علىٰ طريقٍ غيرِ معبَّد. كنت حينَها مغبَرّاً، وأرتدي ثياباً رثّةً إلىٰ حدٍّ ما، وكانت هذه المرأةُ ترتدي لباساً أسودَ سابغاً يغطِّيها: من رأسها إلىٰ أخمص قدميها. مرت هذه العجوز أمامي، ودون أن تتلفَّظ بأية كلمة أو ترمُقَني حتىٰ بنظرة: وضعت قطعةً نقديةً في يدي! حدث هذا بشكل مباغت غير متوقع، حتىٰ إن القطعةَ سقطت من يدي من أثر المفاجأة. وما كدت ألتقطُ القطعةَ من الأرض حتىٰ كانت العجوز تسرع الخُطَىٰ مبتعدةً عني، ماضيةً إلىٰ غايتها من غير أن تلتفت إليّ. لقد تصدَّقَتْ عليَّ بهذه القطعة النقدية الصغيرة لأنها ظنت أنني فقير، وهذا رغم كوني أجنبياً غيرَ مسلم كما كان ذلك لا يخفىٰ من هيئتي. لقد جعلني هذا الموقف أفكِّر كثيراً في الإسلام، لأنه كان الباعثَ الوحيدَ الذي ظهر لي من صنيع تلك المرأة.

جالت في ذهني أفكارٌ كثيرة في تلك الأشهر التي قضيتها في مصر، ووجدتُ نفسي أفكّر في ضرورة أن يكون للإنسان دينٌ ما. لقد كان في مَن رأيتُهم من المسلمينَ نبلٌ في القصد، وسماحةٌ في الروح، من تأثير الإسلام في حياتهم، ذلك التأثير الذي فاق تأثيرَ أيِّ دينٍ رأيتُه ـ حتىٰ الإلحادَ ـ علىٰ أتباعه. لقد وقع ذلك من نفسي موقعاً كبيراً، وكان واضحاً أنّ لدىٰ المسلمين أكثر مما عندَنا. نعم.. كان للمسيحية محاسنُها بالتأكيد، ولكنها كانت ممزوجةً بالأوهام. ولهذا وجدتُ نفسي اتطلّع أكثرَ فأكثرَ نحوَ الإسلام، لغِناه بهذه المعاني النبيلة، وثرائه في التعبير عن تلك المحاسن.

كان أول ما حفظناه في دروسنا الدينية (الكاثوليكية) أيام الطفولة:

ـ لماذا خلقَنا الله؟

وكان الجواب: إظهاراً لبرِّه، وليُدخلَنا في نعيمه المقيم في الجنة.

ـ وماذا يجبُ علينا أن نفعلَ لنَيل نعيم الجنة؟

علينا أن نعرفَ الإلـٰهَ ونحِبّه ونخدمه في هذه الدنيا.

ولمّا تأملتُ فيمَن حولي، أدركتُ أنّ الإسلام هو الذي يُمِدُّنا بالنهج الأشمل والأوضح لتطبيق تلك الأجوبة في حياتنا اليومية.



لم يكن أبداً حجَرَ عثرةٍ في طريقي إلىٰ الإسلام ما كنتُ أراه من النكَسات السياسية التي تتعرَّض لها كثيرٌ من الأقطار الإسلامية في وقتنا الراهن، ولم أكن أشعر أنّ هذه النكسات مسيئةٌ للإسلام في حدِّ ذاته، أو أنها تنتقص من مكانته في الفكر العالمي.

كانت تلك النكسات في نظري مرحلةً من دوران عجلة التاريخ التي لا تقف أبداً إلىٰ قيام الساعة، يرفع الله بها أقواماً ويضع آخرين، بل إنّ حركة الدوران تلك ما تكاد تصل للأسفل حتىٰ تبدأ في الصعود، وإنّ كل متربِّع علىٰ القمة هو في طريقه للهبوطِ تارةً أخرىٰ، وتلك النكسات ليست حدَثاً مستمراً ولا دائماً، ولن يُعدَمَ المسلمون الانتفاعَ من ثمرات تلك المحن والطوارق، فقد شهدت البلاد الإسلامية مِن قَبْلُ هيمنةً أجنبية، عندما وقع التدميرُ الواسعُ لمعالم الحضارة الإسلامية في القرن الثالثَ عشرَ الميلادي، على يد الزحف المغولي من سهول آسيا الوسطىٰ إلىٰ قلب العالم الإسلامي، فأزال مُدُناً بأكملها، وأقام علىٰ أنقاضها أهراماً من

رؤوس البشر، إلىٰ أن جاءت دولةُ الخلافة العثمانية لترفع كلمةَ الله عاليـة، وتجعل من الإسلام واقعـاً سياسيـاً حياً دام قرونا من الزمان.

بل لقد تبيّن لي أنّ المجدَ الذي حققـه المسلمون في الماضي من بين شعـوب العالم لم يكن إلا ثمرةً من ثمرات هـذا الدِّيـن. وإذا كان هذا المجدُ قد خبـا وتلاشىٰ تدريجياً مع تلاشي اهتمام المسلميـن بدينهم فإنّ منَ المرجوِّ أن يعـودَ إليهمُ المجدُ إنْ هم عادوا لدينهم وأحكموا أساسَ التقوى والإحسان.

وقد ظهر لي في حينها أنه قد جاء دورُ مسلمي اليوم للسعي من أجل بلورةٍ تاريخيةٍ جديدةٍ للإسلام. الأمر الذي قد أرتجي، كغيري من المسلمين، أن أجدَ سبيلاً للمشاركة فيه يوماً ما.



في آخر زيارتي تلك للقاهرة سنة ١٩٧٧، سألني صديقٌ عجوز كان يقطن معي في الفندق: «لماذا لا تصبح مسلماً؟»، وطرحتُ هذا السؤالَ فـي تلك اللحظة علىٰ نفسي، فوجدتُ أنّ الله قـد خلقَ في قلبي عزماً للانتماء إلىٰ هذا الدين الذي لمست مدىٰ إغنائـه لقلوب كـل أتباعـه: من بسطاء الناس إلىٰ ألمَعهم فكراً وفهمـاً، علىٰ حدٍّ سواء.

سألتُ بعضَ مَن حولي: كيف يدخلُ الإنسانُ في الإسلام؟

فقيل لي: يذهب إلىٰ الأزهر. وكان ذلك.. ونطقتُ بالشهادتين..

وأحيا الله قلبي كما يُحيي الأرضَ بعدَ موتها..

لم يكن مجرَّد الرغبة أو الاقتناع العقلي هو السببَ في إسلامي، إنما هي رحمةُ الله وهدايته التي تداركني بها في رحلتي الطويلة في البحث عن معنىٰ.. فأخرجني من الظلمات إلىٰ النور، ومن الشك إلىٰ اليقين، والله يختص برحمته من يشاء.

يقول اللهُ تبارك وتعالىٰ:

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟

أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ

وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ

فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ

وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ

ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ

قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

التعليقات

(١) المجمع الفاتيكاني الثاني: مجْمَعٌ انعقد في الفترة من أكتوبر ١٩٦٢م إلىٰ أكتوبر ١٩٦٥م. والمَجْمَع عبارة عن جمعية عمومية استثنائية للكنيسة علىٰ مستوىٰ العالم، يحضره جميع الكرادلة والبطاركة والمطارنة والأساقفة والآباء العامون للرهبانيات.

وقد جرى تحديد العناوين الرئيسية لهذا المجمع - في كلمة البابا يوحنا الثالث والعشرين الافتتاحية - في: النقد الذاتي، والتكيف مع الواقع، وفتح الأبواب أمام العصر. وعولجت هذه العناوين من خلال الإشارة إلىٰ مجموعة من المسائل الفرعية، مثل: الأزمة داخل الكنيسة، وقضية وَحْدة الكنائس، وتراجع المسيحية في العالم وصعود الأيديولوجيات، والعلاقة مع بقية الأديان وبالذات اليهودية والإسلامية، والحاجة إلىٰ كهنة جدد لتأطير جديد للمؤمنين يستوعب مشاركةً ودوراً فاعلاً للعلمانيين،

---

* تنبيه: التعليقات المختومة بحرف (م): من إعداد المترجِم الأستاذ مقران قِزُّو، وما سواها فهو من إعداد المحرِّر الأدبي الأستاذ أحمد عبد الرحيم، عدا بضعة تعليقات كتبها المؤلف بنفسه، وقد ختمناها بكلمة: (المؤلف).

بالإضافة إلىٰ قضايا العصر والحداثة، مثل: الانفتاح الجنسي، وزواج الكهنة، والإجهاض، وغير ذلك.

ولكن هذا المجمع الذي أراد إعادة توحيد الكنيسة علىٰ قاعدة التجديد والتطوير، ساهم في فتح الأبواب أمام رياح التغيير والانقسام داخلَها، وفي دخول سلطة الكنيسة في أزمة عميقة بدءاً من عام ١٩٦٦م. وفي ١٩ سبتمبر ١٩٦٨م ألقىٰ البابا بولس السادس بياناً ضمنه انتقادات قاسية وعنيفة بحق «روح النقد الهدام التي أصبحت (موضة) في بعض قطاعات الحياة الكاثوليكية». . وهكذا أغلق البابا الجديد ـ وبعد ثلاث سنوات فقط من المجمع الثاني ـ البابَ في وجه رياح التمرّد والاعتراض التي تركها المجمع عصيةً علىٰ الضبط، وبدا واضحاً أن التوازن الذي حاول أن يقيمه بين متطلبات العصر وضرورات العقيدة والوحدة والتماسك أصبح أمراً شديد الصعوبة في عالمٍ هائج ومضطرب كعالم نهاية الستينيات.

(٢) **المَطْهَر** purgatory: هو ـ في الاعتقاد المسيحي ـ: محلٌّ في البرزخ، يتمّ فيه تطهير نفوس المؤمنين المسيحيين ـ ممن مات علىٰ النجاة لكن كانت لهم صغائر من الذنوب ـ بعذابٍ محدود الأجل قبل أن يدخلوا الجنة. (م).

(٣) **مارتن لوثر** (١٤٨٣-١٥٤٦م): مصلح ديني شهير، ومؤسس المذهب البروتستانتي المنفصل عن الكنيسة الكاثوليكية. ولد في ألمانيا، وبها حصل علىٰ الإجازة الجامعية، ثم رُسم قسيساً، وتولىٰ تدريس الفلسفة في جامعة فتنبرج. وفي سنة ١٥١١م سافر إلىٰ روما، وهي الرحلة التي غيرت مجرى حياته؛ إذ بدأت سيرته مصلحاً للدين المسيحي فور

عودته منها. لقد كان البابا في أشد الحاجة إلىٰ المال، ولم يجد سبيلاً للحصول عليه إلا عن طريق إصدار وبيع صكوك الغفران، فأصدر لوثر بياناً يحتوي خمساً وعشرين قضية ضد صكوك الغفران. وجرت بينه وبين رجال كنيسة روما محاورات عنيفة أدت إلىٰ تدخل البابا ليو العاشر غيرَ مرة. وبسبب نشره نداءه الشهير الذي وجّهه إلىٰ «النبلاء المسيحيين في ألمانيا» ثم رسالته «في الأسر البابلي للكنيسة»؛ أصدر البابا مرسوماً ضده يحتوي إحدىٰ وأربعين قضيةً، لكنه أحرقه علناً أمام جمع حاشد في مدينة فتنبرج.

ومن أهم آرائه التي جلبت عليه السخط من رجال الكنيسة في عصره أنه عزا كلَّ قوةٍ وعلةٍ إلىٰ الله وحده، الذي هو العلة الأولىٰ. ومن ثَمَّ لم يَعزُ إلىٰ العلل الأخرىٰ إلا دوراً ثانوياً. ومن أهم لوازم هذا الرأي إسقاط كل وَساطة بين الإنسان وبين الله، وبالتالي إلغاء نظام البابوية الذي يقوم علىٰ رأسه هؤلاء الوسطاء. وقد سار في هذا الاتجاه شوطاً طويلاً حتىٰ نعَتَ بابَويّةَ روما بأنها من صنع الشيطان.

وقد ترجم لوثر «الكتاب المقدس» ـ لأول مرة ـ إلىٰ الألمانية ترجمةً جيدة، هدف منها إلىٰ نقله إلىٰ لغةٍ أقرب ما تكون إلىٰ لغة الشعب الألماني البسيطة الخالية من كل اصطلاح وتعقيد بعد أن ظل لقرون طويلة ـ بلغته اللاتينية ـ حكراً علىٰ رجال الكنيسة.

(٤) **اللاهوت**: هو التأمل المنهجي في العقائد الدينية، وهو مصطلح يختص عادةً بتلك الدراسات التي تتناول العقيدة المسيحية بالنقد والمراجعة.

(٥) **يواكيم يِريمِياس**: فيلسوف ألماني، وعالمٌ في الدراسات اللاهوتية. ولد بـ(درزدن) بألمانيا سنة ١٩٠٠م، وعاش في شبابه بالقدس (من

عام ١٩١٠-١٩١٥م) حيث كان أبوه هناك من رجال الكنيسة اللوثرية البروتستانتية. درَس اللاهوت واللغات الشرقية بألمانيا بـ(توبنجن) و(ليبزغ)، وتخرج من جامعة (ليبزغ) سنة ١٩٢٥م. وفي عام ١٩٢٨م أصبح مدير معهد الدراسات اليهودية ببرلين. عيّن بعد ذلك أستاذاً للاّهوت في جامعة جورجيا بأمريكا، ودرّس فيها حتىٰ تقاعده سنة ١٩٦٨م، وكانت وفاته بـ(توبنجن) سنة ١٩٧٩م. كتب مؤلفاتٍ عدة لقيت شهرةً واسعةً بين دارسي العهد الجديد، منها: «القدس في زمن عيسىٰ»، «لاهوت العهد الجديد»، «أمثلة عيسىٰ»، «كلمات القربان المُقدَّس لعيسىٰ». (المؤلف).

(٦) رودلف بولتمان (١٨٨٤-١٩٧٦م): مفكّر ديني ألماني، وعالم متخصّص في دراسة العهد الجديد، كان تلميذاً للفيلسوف الوجودي مارتن هَيْدِغر، وله تأثير كبير في الأوساط الفكرية البروتستانتية، بل يُعدّ أكبر مختص في دراسة العهد الجديد في القرن العشرين. من مؤلفاته: «عيسىٰ والكلمة»، «أهمية عيسىٰ التاريخي بالنسبة للاهوت بولس»، «الإيمان والفهم»، «لاهوت العهد الجديد». (م).

(٧) آرثر شوبنهاور (١٧٨٨-١٨٦٠م): فيلسوف ألماني. تقوم فلسفته كلُّها علىٰ قاعدتين: أن العالم امتثال، وأن العالم إرادة. وهو من القائلين بوَحْدة الوجود بالمعنىٰ الفلسفي الخالص (وَحْدة الوجود المادية) لا بالمعنىٰ الديني، بمعنىٰ أن هذا الوجود له مبدأٌ واحدٌ وَحْدةً مطلقة في ذاته وإن تعددت المظاهر التي يتحقق فيها موضوعياً، وهذا المبدأ هو الإرادة العمياء المندفعة نحو إرادة الحياة بلا غاية ولا هدف. فهو بذلك فيلسوف التشاؤم الأكبر، حيث يرىٰ أن الوجود خطيئة، إذ إنه في

جوهره شرٌّ، وقد حاول أن يفسر كل ما في الوجود من مظاهر تبعاً لهذا الأصل. من أهم أعماله: «العالم إرادةٌ وامتثال»، و«المشكلتان الرئيسيتان في الأخلاق».

(٨) **فريدريك نيتشه** (١٨٤٤-١٩٠٠م): فيلسوف ألماني. من أعظم الفلاسفة تأثيراً في القرن العشرين، وواحد من أعظم الشخصيات المصيرية في التاريخ الروحي للغرب. واسمه يرتبط بنقدٍ جذريّ للدين والفلسفة والعلم والأخلاق، حيث كان يرىٰ أن الإنسانية عاشت طوال تاريخها علىٰ عبادة الأصنام في الأخلاق والسياسة والفلسفة، ولهذا فقد حدَّد مهمته في الكشف عن هذه الأصنام ثم تحطيمها. وكان عليه بعد أن أنجز هذا التحطيم للقيم السائدة أن يقدم شِرْعة القيم الجديدة التي يؤمن بها، وقد تلخصت هذه الشِّرعة في «مبدأ القوة» الذي ينبغي تقويم المعارف الإنسانية بحسَبه. ومن ثَمَّ دعا إلىٰ نظرية «الإنسان الأعلىٰ»، وقال: إنّ الإلٰه قد مات! وإن الكنائسَ إنما هي شواهدُ علىٰ قبره! لذا يعتبره كثير من الدارسين ـ بقَولِته هذه ـ فيلسوفَ العلمانية الأكبر حيث أصّل لها بعدميته المطلقة تلك. انتهىٰ به الأمر في آخر حياته (في ١٨٨٩م) إلىٰ الجنون. من أهم كتبه: «هكذا تكلم زرادشت».

(٩) **جورج سيل** (١٦٩٧-١٧٣٦م): مستشرق بريطاني، معروف بترجمته للقرآن الكريم التي أنجزها عام ١٧٣٤م، وقد كانت هذه الترجمة هي الترجمة المعتمدة في العالم الأنجلوسكسوني لعقود من الزمن. (م).

(١٠) **لُوْشِن**: أحد أبرز رواد النهضة الأدبية الإغريقية زمن الإمبراطورية الرومانية. ولد في سوريا سنة ١٢٠م. جال خطيباً ومتكلماً بارعاً في اليونان وإيطاليا وفرنسا. استقر في أثينا ودرَّس فيها الفلسفة. تبنّاه

الإمبراطور فيـروس. مكث لديه حتىٰ آخر حياته خطيباً في أثينا ومات بها بعد سنة ١٨٠م. (المؤلف).

(١١) جان بول سارتر (١٩٠٥-١٩٨٠م): فيلسوف وأديب فرنسي وجودي. فضلاً عن اشتغالـه بالفلسفـة والأدب كانت له مواقف سياسيـة جيـدة عارض فيها بعض سياسات بلده (كاحتجاجه علىٰ عمليات التعذيب التـي كان يقـوم بهـا الجيش الفرنسي ضـد المجاهديـن الجزائريين)، وبعض سياسات الاتحـاد السوفيتي والمجـر، مما جعـل علاقتـه مـع الشيوعية تتوتر. وفي سنة ١٩٦٤م مُنح جائزة نوبل في الآداب، ولكنه رفض استلامها لأسباب شخصية وموضوعية ـ على حـدٍّ تعبيره ـ تتعلق برؤيته للعلاقـة بين الثقافة الغربيـة (أوروبا الغربيـة وأمريكا) والثقافـة الشرقية (روسيا والدول التابعة لها).

من أهم مؤلفاته: «الوجود والعدم» الذي فصَّل فيه محاضرته الشهيرة التي ألقاها بأمريكا «الوجودية كنزعة إنسانية»، وعرض فيه بالتحليل العميق لمذهبه في الوجودية، وله كذلك «نقد العقل الديالكتيكي» الذي قرر فيه رأيه في إنكار فكرة العقل الجماعي أياً ما كانت صورته، وهذا فضلاً عن عددٍ كبير من الدراسات والمسرحيات والروايات التي بثَّ فيها آراءه الفلسفية.

(١٢) كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣م): مفكر اقتصادي وسياسي ألماني توثَّقت عُرىٰ الصداقة بينـه وبيـن فريدرش إنجلز (١٨٢٠-١٨٩٥م). وعملا معاً علىٰ إعادة تنظيم العصبة الشيوعية، وكتب إنجلز المسودة الأولى لـ«البيان الشيوعي» وأعاد ماركس تحريره، ونشراه عام ١٨٤٨م. وكانت غاية ماركس من فلسفته الاقتصادية إعادة تشكيل حياة الإنسان

علىٰ الأرض تشكيلاً إنسانياً مادياً خالصاً بعد «تحريره» من عبودية الألوهية، وذلك حتىٰ يكف الإنسان عن النظر إلىٰ الوَحْدة والسعادة والحب علىٰ أنها مُثُلٌ عليا بعيدة المنال أو لن تتحقق علىٰ الأرض وإنما في حياة أخرىٰ في السماء. إن الإنسان الذي يريده ماركس هو ذلك الذي لا يقيم تحقيقَه لذاته وكماله علىٰ أي شكل من المجرَّدات مثل الألوهية والأيديولوجيات، وإنما يحقق نفسه بالاتحاد مع العالم بواسطة العمل الخلّاق والنشاط البنّاء والعلاقات الاجتماعية المنسجمة. [وما من بلدٍ دخلته فكرته هذه إلا وأخرج أجيالاً غلبت عليها الأنانية البشعة وعدم الاكتراث بحاجات الآخرين، عكسَ ما أراده ماركس بنظريته الاجتماعية هذه. المؤلف]. أشهر مؤلفاته علىٰ الإطلاق كتابه «رأس المال» الذي يعد من أكثر الكتب تأثيراً في القرن العشرين.

(١٣) إميل دوركايم (١٨٥٨-١٩١٧م): فيلسوف اجتماعي فرنسي، يهوديّ الأصل، من كبار مؤسسي علم الاجتماع في فرنسا. عُني بالفحص عن الخلل الاجتماعي والظواهر المرَضية (الباثولوجية) التي يؤدي إليها هذا الخلل. وقد سلك طريقةً في بيان المنهج في علم الاجتماع تقوم علىٰ ثلاث قواعد: استبعاد كل الأفكار السابقة استبعاداً منظَّماً، والتخلص من سلطان الأفكار العامية من أجل توجيه الانتباه إلىٰ الوقائع المحدَّدة، والنظر إلىٰ الوقائع الاجتماعية بمعزلٍ عن تجلياتها الفردية.

وقد قدم دوركايم هذه القواعد علىٰ دراسة بعض المشكلات والمسائل الاجتماعية، مثل: تقسيم العمل الاجتماعي، والانتحار، ومشكلة المعرفة الاجتماعية، والحياة الدينية. وكتابه «الأشكال الأساسية للحياة الدينية» من أهم مؤلفاته.

(١٤) سيجموند فرويد (١٨٥٦-١٩٣٩م): نمساوي يهودي الأصل، تخصّص في طب الأعصاب، ثم تحوّل إلىٰ دراسة الجوانب فيه، واستطاع أن يُرسي في بضع سنوات دعائم مدرسة التحليل النفسي التي ما تزال حتىٰ اليوم ذات تأثير في الحياة الثقافية في العالم الغربي. وأهم أعمال فرويد وآرائه: وصفُه للسلوك غير السويّ (العُصَابي والاستحواذي والاكتئابي) عند البالغين، واتجاهُه إلىٰ البحث في الظروف المنتجة له، معتبراً إياه استعارةً لمواقف ومخاوف طفولية مضمونها الكامن جنسيٌّ بحت.

(١٥) يورجن هبرماس (ولد عام ١٩٢٩م): فيلسوف وعالم اجتماع ألماني. وقد أثّرت نظرية هبرماس النقدية للعلم والمصالح البشرية تأثيراً كبيراً في عدة مجالات مثل العلوم الاجتماعية والنظرية الاجتماعية وتاريخ الأفكار. وقد كان يورجن هبرماس في بداية مساره العلمي مرتبطاً بمدرسة فرانكفورت النقدية، ولكنّه طوّر فيما بعد نظرياته وفلسفته الخاصّة به. من أهم مؤلفاته: «المعرفة والمصالح الإنسانية»، «نحو مجتمع عقلاني»، «النظرية والتطبيق»، «الاتصالات وتطوّر المجتمع»، «نظرية الفعل الاتصالي». والكتاب الأخير من أهمّ مؤلفاته. (م).

(١٦) ألكسندر كوجيف (١٩٠٨-١٩٦٨م): فيلسوف ومؤرِّخٌ للفلسفة، فرنسي من أصل روسي، وهو من الذين ساهموا مساهمة كبيرة في التعريف بفلسفة هيجل في فرنسا. (م).

(١٧) جورج وليام فريدريك هيجل (١٧٧٠-١٨٣١م): أكبر فيلسوف ألماني بعد إمانويل كانْت (١٧٢٤-١٨٠٤م). تمتاز فلسفته بالغموض بسبب أسلوبه المعقّد وكثرة مصطلحاته الصعبة. جوهرُ الفلسفة في نظره

ليس هو صرفَ الإنسان عن العالم الواقعي كما قد يفهم من وصفه بالمثاليـة ، بل إن مهمتها هي إصلاح ذات البَيْن بيـن الإنسان والعالـم الذي يشعر فيه بالغربة . ويتم هذا الإصلاح بأن تبيِّن الفلسفـة للإنسان ما هنالك من تجانس بين ذاته وبين هذا العالـم ، هنالك يدرك العقلُ ذاتَه وسط هذا العالم ويتعقله ، وبذلك يصبح العالَم أليفاً لديه . ومن هنا ؛ فغاية الفلسفة الرئيسية عنده هي فهم الواقع وجعله معقولاً .

ومن أهـم مؤلفاته علىٰ الإطلاق : «ظواهرية العقـل» الذي أراد فيـه أن يقدِّم مدخلاً يبين فيه كيف توالت المراحل المختلفة للشعور ، من مرحلة الشعور البدائي الحسِّي إلىٰ مرحلة الوعي الفلسفي الكامل الذي يتبين فيه للوعي أنه والمطلق شيء واحد . ومن كتبه المهمة كذلك : «فلسفة القانون» الذي لخص فيه ونظَّم كل أفكاره الفلسفية التي بثَّها في حياته بخصوص الأوضاع السياسية في ألمانيا .

وقد جُمِعت مؤلفاته بعد وفاته في ثمانية عشر مجلداً عدا المجلدات التي تحوي مراسلاته .

(١٨) قول المؤلف : «وهكذا يبدو الأمر وكأنّ ما حققناه في هذا القرن من هيمنةٍ لا نظيرَ لها علىٰ العالـم الواقعـي للأشيـاء ، قد انتهـىٰ بنـا إلـىٰ تحوُّلِنا نحـن إلـىٰ مجـرَّد أشيـاء !» : هـذا ما يسميـه المفكـر المصري الدكتور عبد الوهاب المسيري «التشيُّؤ» (reification) ، ويعني به تحول العلاقات بين البشر إلىٰ ما يشبه العلاقات الطبيعية بين الأشياء (علاقاتٍ آليةً غيرَ شخصية) ، ومعاملة الناس بعضهم بعضاً باعتبارهم موضعاً للتبـادل (وبمصطلحه أيضاً : «حوسلة» البشر ـ أي : تحويلهـم إلىٰ أن يكونوا مجـرد وسيلـة ـ باعتبارهـم أشيـاء) . وبعبارة أوضح : التشيُّؤ

هو أن يتحول الإنسان إلىٰ شيء، تتمركز أحلامه وتطلعاته حول الأشياء، فلا يتجاوز السطح المادي إلىٰ روح الأشياء. والإنسان المتشيِّئ إنسان ذو بُعدٍ واحد، قادرٌ علىٰ التعامل مع الأشياء بكفاءة غير عادية من خلال نماذج اختزالية بسيطة، ولكنه يُخفق في التعامل مع البشر بسبب تركيبيَّتهم.. ولعل أبرز مثال لهذا الإنسان المتشيِّئ هو إنساننا المعاصر ـ خصوصاً في الغرب ـ المتصف بالنفعية والأداتية، الذي لا يكاد يلتفت إلى قيمةٍ أو أحدٍ في لُهاثه الذي لا يتوقف نحو «التقدم» و«الإنجاز»!

(١٩) **سيّد حسين نصر** (ولد عام ١٩٣٣م): باحث إيراني مختصٌّ بالفلسفة الإسلامية، وخاصة الفلسفة الإشراقية كما هي عند صدر المتألّهين صدر الدين الشيرازي المعروف بملا صدرا (توفي سنة ١٦٤٠م). وهو أستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة (جورج تاون) بواشنطن. ألّف كثيراً من الكتب عن الإسلام والفلسفة الإسلامية. وهو أوّل مسلم اختير لإلقاء محاضرات غيفورد الشهيرة التي يُختار لإلقائها كلّ سنة كبار الفلاسفة والمفكِّرين الدينيين في العالم. من مؤلفاته: «العلم والمُقدَّس»، «العلم والمعرفة في الإسلام»، «فلسفة ملاّ صدرا»، «ثلاثة حكماء مسلمين»، وغيرها. (م).

(٢٠) **وليام مونتغمري وات**: مستشرق اسكتلندي مولده سنة ١٩٠٩م، كان قسيساً بروتستانتياً، وله أكثر من ثلاثين من الترجمات والمؤلفات. من ترجماته: «مقتطفات من تاريخ الرسل والملوك للطبري»، و«المنقذ من الضلال» للإمام الغزالي، ومن مؤلفاته: «محمّد في مكّة»، «محمّد في المدينة»، «الفكر السياسي في الإسلام»، «النساء في صدر الإسلام»، «حوارات إسلامية مسيحية». لُقِّب بخاتمة المستشرقين. (المؤلف).

(٢١) أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (٤٥٠-٥٠٥هـ/ ١٠٨٥-١١١١م): حجة الإسلام، والإمام المعروف في التصوف والأخلاق وكثيرٍ من العلوم الإسلامية. بدأ في قراءة كتب الفلسفة وهو في نحو الرابعة والثلاثين من عمره، فأخذ فكره يتغير مجراه، مما تسبب في وقوعه في أزمة روحية عنيفة، كان من نتائجها أنْ شكَّ في اعتقاداته الموروثة. وكان هذا الشك المنهجي أولَ دافع له إلىٰ النظر العقلي الحر، وقرر هو ذلك في قوله: «من لم يشكَّ لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمىٰ والحَيْرة والضلال». وقد استخدم هذه الخلفية العقلية العميقة في ردوده القوية علىٰ الباطنية (من الشيعة الإسماعيلية) في كتابيه «فضائح الباطنية» و«حجة الحق»، وكذلك في نقده المفحِم للفلاسفة اليونان والمسلمين، لا سيما ابنُ سينا والفارابي، في أهم كتبه الفلسفية «تهافت الفلاسفة».

أما كتابه المهم «المنقذ من الضلال»؛ فقد سجَّل فيه أزمته الروحية التي استمرت نحو ستة أشهر (من رجب ٤٨٨ وحتىٰ أوائل ٤٨٩هـ)، والتي دفعته إلىٰ أن ينظر في أهم التيارات الفكرية في عصره حتىٰ لا يكون مصدرُ إيمانه التقليدَ.. وفنّدها واحدةً بعد أخرىٰ، حتىٰ انتهىٰ إلىٰ التصوف، مؤثِراً إياه علىٰ طرق الجماعات الأخرىٰ من المتكلمين والفلاسفة وغيرهم، ومن ثَمَّ شرع في تصنيف أشهر كتبه علىٰ الإطلاق «إحياء علوم الدين». من تآليفه الأخرى: «المستصفىٰ» في أصول الفقه، «منهاج العابدين»، «المقصد الأسنىٰ شرح أسماء الله الحسنى». وغيرها.

(٢٢) آرثر جون آربري (١٩٠٥-١٩٦٩م): مستشرق إنجليزي غزير الإنتاج. اهتمّ علىٰ وجه الخصوص بنقل التراث الصوفي إلىٰ اللغة الإنجليزية. ولكن أكبر إنجاز قام به هو ترجمته لمعاني القرآن الكريم إلىٰ اللغة الإنجليزية التي تُعَدُّ من أحسن وأجمل ترجمات القرآن الكريم في هذه اللغة. (م).



التعريف بالمؤلف

ولد المؤلف نوح كلر عام ١٩٥٤ في ولاية واشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية، ودرَس الفلسفة وغيرها من العلوم في جامعة غانزاغا الكاثوليكية بولاية واشنطن، ثم في جامعة شيكاغو، رحل بعدها إلىٰ مصر لإكمال دراسة اللغة العربية فاعتنق الإسلامَ هناك.

عاد بعد ذلك إلىٰ أمريكا وأكمل دراسته في جامعة كاليفورنيا بـ(لوس أنجلوس) سنة ١٩٧٩، وفي تلك السنة نفسِها رحلَ إلىٰ الأردن، حيث أتمَّ دراسة اللغة العربية، وتلقّىٰ العلوم الإسلامية في الأردن وسوريا علىٰ أيدي نخبةٍ من العلماء في الفقه الإسلامي، والحديث النبوي الشريف، والعقائد، وغيرها، وسلك طريقَ الآخرة. اشتغل بالتأليف في العلوم الإسلامية وترجمة كتبها، وكتب الكثيرَ من المقالات، وألقىٰ محاضراتٍ دينية في بقاعٍ شتىٰ من العالم. ولا يزال اليوم (سنة ٢٠٠٥) مقيماً بأهله في عمّان الأردن، مشتغلاً بالترجمة والتأليف والتدريس.

فهرس المحتويات

بين يدي القصة ٥

داخل الكنيسة ٧

الفلسفة ومفاوز التساؤلات ١٤

صيّادٌ في البحر ٢١

عودةٌ إلىٰ الفلسفة ٣٠

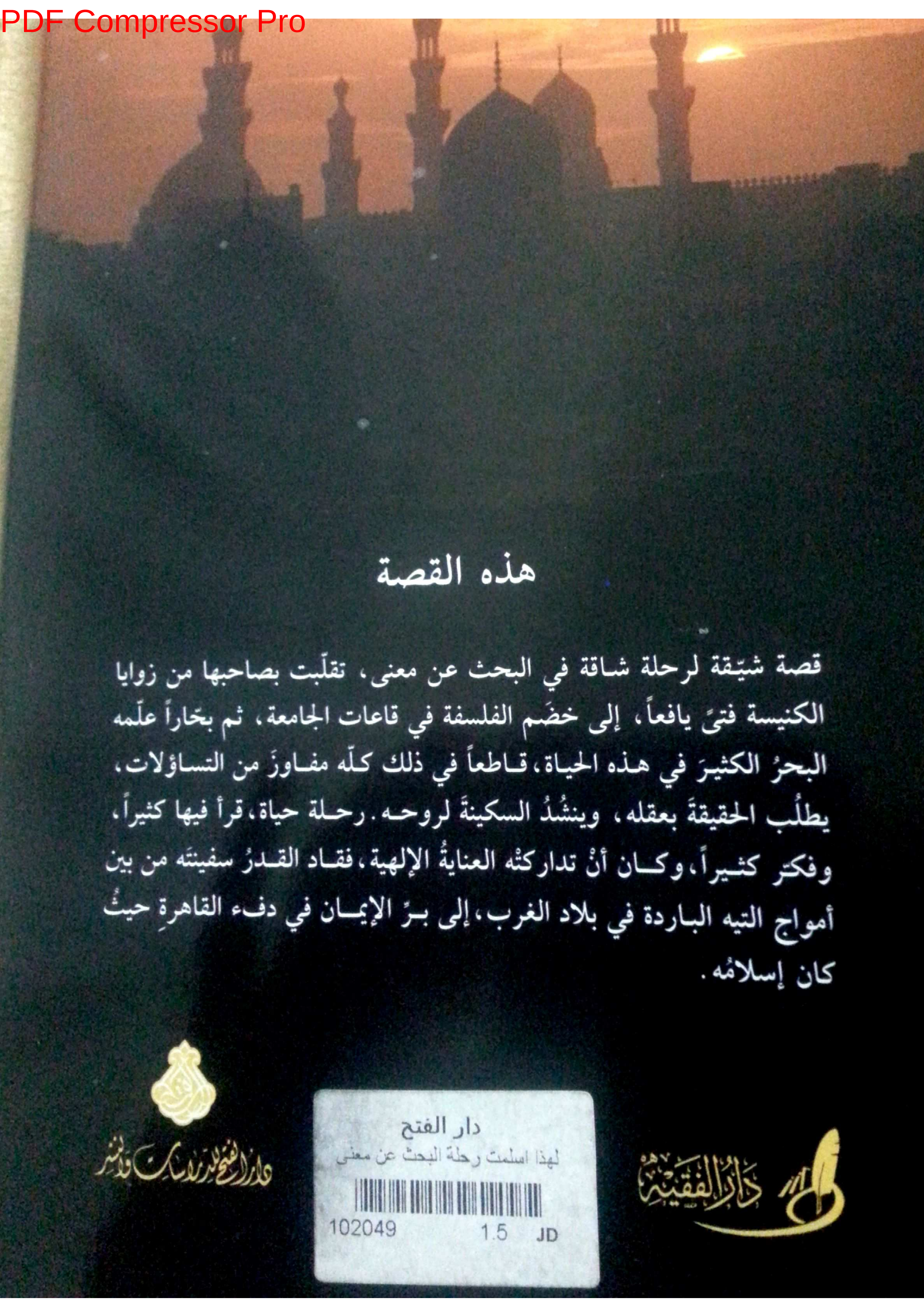
المنقذ من الضلال ٣٧

في القاهرة ٤١

التعليقات ٤٩

التعريف بالمؤلف ٦١

فهرس المحتويات ٦٣


هذه القصة
قصة شيّقة لرحلة شاقة في البحث عن معنى، تقلّبت بصاحبها من زوايا الكنيسة فتىً يافعاً، إلى خضَم الفلسفة في قاعات الجامعة، ثم بحّاراً علّمه البحرُ الكثيرَ في هذه الحياة، قاطعاً في ذلك كلّه مفاوزَ من التساؤلات، يطلُب الحقيقةَ بعقله، وينشدُ السكينةَ لروحه. رحلة حياة، قرأ فيها كثيراً، وفكّر كثيراً، وكان أنْ تداركته العنايةُ الإلهية، فقاد القدرُ سفينتَه من بين أمواج التيه الباردة في بلاد الغرب، إلى برّ الإيمان في دفء القاهرةِ حيثُ كان إسلامُه.
دار الفتح للدراسات والنشر
دار الفتح
لهذا اسلمت رحلة البحث عن معنى
102049
1.5 JD
دار الفقيه